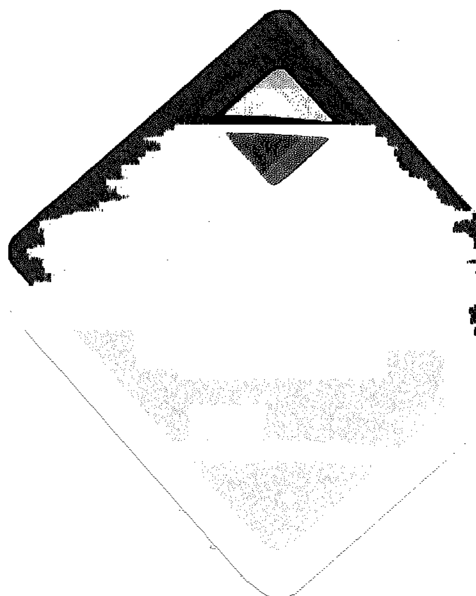


ثلاثية الطب والعقل والسحر

التخاطر عن بعد والاستبصار
قوة العقل والارادة

تاليف : غاي ليون بليفير
ترجمة : عيسى سمعان





التخاطر عن بعد والاستبصار

★ ثلاثية الطب والعقل والسحر
الكتاب الثاني : التخاطر عن بعد والاستبصار
★ تأليف : غاي ليون بليفير
★ ترجمة : عيسى سمعان
★ الطبعة الأولى ١٩٩٠
★ عدد النسخ ٢٠٠٠
★ المطبعة : دار العلم
★ الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع : سورية ـ اللاذقية
ص.ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩

ثلاثية الطب والعقل والسحر



التخاطر عن بعد والاستبصار
قوة العقل والارادة

تاليف : غاي ليون بليفير
ترجمة : عيسى سمعان

مدخل

في بحثي عن حدود قدرات العقل ، حتى الآن ، لم أتطرق سوى إلى نفوذه على الجسد العائد له ، مع أو بدون مساعدة منوم مغناطيسي . ركّزت على الشفاء ، بسبب أهميته العملية الواضحة ، كما رأينا أن قوة العقل يمكن مناقشتها انطلاقاً من قاعدة صلبة من الدلائل البادية للعيان التي أعلن عنها المتخصصون ، ولا سيما الأطباء وعلماء النفس السريريون ، ونشرت في المجلات العلمية .

والآن ، إذا قرأنا تاريخ المسمرية والتنويم المغناطيسي بعقل متوازن ، لا يسعنا إلا أن نلاحظ أنه منذ البدء كانت هنالك تقارير عما أصبح يعرف بـ «الظواهر السامية» . وهذه تشمل التخاطر من بعد ، الاستبصار (قدرة رؤية الحوادث غير المنظورة) . وشراكة الأحساسيس ، حيث يشارك الشخص المنوم مغناطيسياً انطباعات المنوم الذاتية في الذوق ، الألم ، أو الانفعالات مثل الخوف أو البهجة .

وقد نشرت بعض هذه التقارير بقدر من التفصيل يعادل نظيره في حالات الشفاء الطبية ، أحياناً على يد الناس أنفسهم ، مثل بويسيجور . إذا قبلنا ظواهر التنويم المغناطيسي الطبية لماذا ننفي الأخرى ؟ وقد تكررت الاثنتان في ظل شروط حديثه ؟ الظواهر السامية ، كما هو معترف به بصورة أقل من الظواهر الطبية ، لسبب بسيط قد يكون أن قلة من المنومين المغناطيسيين يحاولون تكرارها ،

مع أنهم كما سنرى ، بين الفينة والفينة يفعلون . بعض أفضل التقارير عن الظواهر السامية يمكن أن يفيدنا الكثير عن عمل العقل مما نحصل عليه من الحالات الطبية ، حيث حتى يومنا هذا قلما يذكر عقل المريض بأي تفصيل كان .

أحد أسباب رفض الظواهر السامية هو أنه رغم الإعلان عنها لأول مرة قبل ميلاد الحركة الروحانية بأكثر من خمسين سنة فقد درج كل من الشكاك والمؤمن على تحديدها كجزء من هذه الحركة . وقد أدى هذا إلى استقطاب دائم وفوري : إما أن تقبل الفلسفة والظواهر ، أو ترفض كليهما . هذا الاستقطاب لا يزال حتى يومنا هذا ، وأحد أهدافي في الجزء الثاني هو محاولة فك الواحدة من الأخرى ، والتركيز على الظواهر أكثر من الفلسفة

في حزيران عام ١٩٨٣ ، تكلمت في مؤتمر علمي دولي في تشيوسلوفاكيا عن «السايكوترونيات والعقل الذاتي» ، وهذا ما سأذكره بتفصيل أكبر لاحقاً . كانت وجهة نظري أنه في الوقت الذي بإمكاننا أن نرفض فيه الفلسفة الروحانية ، إذا شئنا ، ليس لدينا الحق في رفض أية حقائق حسنة الرواية . لقد أوضحت أنني لم أكن أهاجم ولا أدافع عن الروحانية ، وينطبق الشيء ذاته على الفصول التالية ، التي تتناول الحياة قبل الموت وليس بعده .

في عدد تشرين الثاني ١٩٨٣ من المجلة العلمية الفرنسية (لاريشيرش) اتخذ مؤرخ في جامعة باريس ويدعى بيير ثوييه نفس الخطوة بالضبط ، على نحو أفضل مني معرفة واطلاعاً . فقد قبس ملاحظة قالها عام ١٨٦٣ الفلكي كميل فلاماريون :

لا من بإمكانة القول إن العلم الروحاني ليس طريقاً جديدة فتحت في مملكة علم النفس سوف تؤدي إلى دراسة ملكات الروح ، التي من خلالها سنتوصل في النهاية إلى معرفة أنفسنا ؟ (الفروق بين المذهب الروحاني والحركة التي أسسها آلان كارديك وتدعى العلم الروحاني ليست بذات بال في هذا السياق .)

قبل أن ألج ميادين تعتبر عموماً أنها من الخوارق ، الأمر الذي يعني أنها إنما تحتاج إلى توضيح ، عليَّ أن أوضح موقفي . ما فتئت أهتم بأمور مثل التخاطر (انتقال المعلومات من مسافة من عقل إلى عقل) ، الاستبصار (إدراك الأشياء أو الحوادث الموضوعية بغير الطرق الطبيعية) والحركة النفسانية (الحركة الفيزيائية التي يسببها العقل) لبعض الوقت ، وتوفرت لدي الخبرة الكبيرة عنها ، كما جرى وصفه في ثلاثة من الكتب . مؤخراً ، توقفت عن محاولة إقناع الناس الآخرين أنها موجودة ، وركزت على إيجاد السبل لكي أخبرها بنفسي وفي البحث عن فوائد عملية لها . وقد وجدت ذلك أسهل بكثير مما اعتقدت ، وسأعطي التعليمات الدقيقة في حينها لمن يريد أن يفعل ذات الشيء .

خلال كامل استقصاءاتي ، التي بدأت عام ١٩٧٢ ، لاحظت أنه مهما تكن الظواهر الخارقة خادعة فإن تأثيراتها على الناس تبقى أكثر غموضاً . ليس من ميدان آخر يكون فيه عامل سيلة ـ تشاريبدس فاعلاً بقوة كهذه ، مع وجود تخمينات غير مألوفة على يد متطرفي العقل الأيمن لا يعادلها سخفاً سوى «الإيضاحات» الأكثر غرابة على يد النقاد المتطرفين من ذوي العقل الأيسر . غائبة عن كل هذا الصياح والهياج هي الحقائق .

أحد أسباب هذا هو أن الحقائق لا تتواءم مع أي نهج للأشياء مقبول عموماً في الفيزياء ، البيولوجيا أو علم النفس . أمكن القول حتى عهد قريب ، إن البحوث النفسانية هي مضيعة للوقت لأنها غير ذات نفع . لم يعد هذا واضحاً . إن الظواهر المجمّعة سوية بغية التسهيل تحت عناوين «الادراك ما فوق الحسي» أو ببساطة «PSI» لا ترتبط ببعضها فقط بل لها الأثر المباشر على التنويم المغناطيسي . ممكن تبعاً لذلك وضعها قيد الاستعمال ضمن الإطار الحالي للطب التقليدي ، كما أعتقد أنها قد وضعت لفترة من الوقت .

إذا أمكن للأفكار أن تنتقل من شخص لآخر، الأمر الذي لا جدال فيه في ظل الشروط الصحيحة ، وإذا قادت مثل هذه الأفكار إلى الفعل من جانب

المستقبل (المتلقي) ، وهذا أيضاً أعتبر أنه تمت البرهنة عليه بشكل لا يدع مجالاً للشك المعقول ، عندها يطرح نموذج جديد في الشفاء نفسه . (لن يبدو ذلك غريباً على أولئك الذين يؤمنون بفعالية أكثر أشكال PSi المعروفة قدماً ، ألا وهو الصلاة .)

لا يزال الجدل محتدماً حول وجود ظواهر PSi أم لا . إن الشدة التي يهاجم بها بعض المتشككين هذا المجال بأكمله توحي أنه بداخلهم خشية من أنها موجودة فعلاً ، لكن القضية أنها لا تتواءم مع نهج العقل الأيسر في الأشياء ويجب لذلك كبحها مهما كلف الأمر . أي سبب آخر يجعل محرر مجلة (نيتشر) يكرس افتتاحية كاملة لكتاب نجد فيه نقاشاً جيد المحاكمة طرحه عالم ذو مؤهلات لا غبار عليها عن وجود عامل PSi في البيولوجيا ، ويعنونه «كتاب للحرق» ؟ في وقت غير بعيد كثيراً عن يومنا هذا كان سيطلب حرق الكاتب نفسه .

ظواهر PSi توجد بالفعل ، لكنها ذاتية بصورة رئيسية . أي أنها تحدث لبعض الناس دون غيرهم . كما سنرى تعتمد مسألة حدوثها أو عدمه على الحالة العقلية لمن يعنيهم الأمر . إذا شئت حدوثها وآمنت أنها تحدث بالفعل ، عندها ستحدث . إذا شئت ألا تحدث ، فلن تحدث على الأرجح .

يمكنك أن تقتنع من الناحية الفكرية بحدوثها بالفعل عن طريق قراءة المبلغ الهائل من الأدلة عليها ، لكن كي تقتنع عاطفياً بشيء عليك أن تخبره بنفسك . على سبيل المثال ، عقلي الأيسر يقتنع أن الإنسان قد وطأ أرض القمر . كنت أعمل لصالح السفارة الأمريكية في البرازيل عام ١٩٦٩ ، وكان جزءاً من عملي أن أنشر الدعاية حول خطوة نيل آرمسترونغ العملاقة ، والتي شاهدها معظم سكان العالم على شاشة التلفاز .

مع ذلك ، أوحت جريدة في نيو أورليانز أن كافة هذه اللقطات الدرامية عن رواد الفضاء وهم يقفزون هنا وهناك على التربة القمرية قد صورت كفيلم في

الواقع في يونيفرسال سيتي ، هوليوود . فنياً لم يكن هذا يطرح أية مشكلة . أذكر سيراً مقنعاً جداً على القمر في أحد أفلام جيمس بوند كان يشابه تماماً السير الحقيقي . إن لم يكن أفضل منه . لكن جرّب أن تقنع أرمسترونغ وخلفاءه أنهم لم يذهبوا إلى القمر أبداً . هم قانعون في عقولهم وعواطفهم أنهم فعلوا .

لا يشاركهم في اعتقادهم هذا كافة الناس . روى رائد الفضاء إدغار ميتشل أنه التقى أناساً لا يزالون يأبون التسليم بذلك، والناس الذين يخبرون ظواهر PSi غالباً ما يجدون أنفسهم يواجهون رد الفعل نفسه . متطرف العقل الأيسر لا يحذو حذو زميل إيليوتسون الذي لم يكن يعلم شيئاً عن المسمرية و «لذلك يجب عدم التفوه بشيء ضدها» . إنه يرفض PSi بصورة قبْلية (بتسكين الباء) ، إذ لا مكان لها في عالمه .

أولئك الذين يفيدون أقصى إفادة من عقولهم اليمنى ، من ناحية أخرى ، سيعلمون أن المسألة ليست وجود PSiأو عدم وجودها ، إنما المسألة في السماح لها بأن تحدث . هذا ، كما أعلم الآن ، سهل بشكل لافت للنظر .

يوم سعيد

كانت ليلة قائظة من ليالي شهر شباط عام ١٩٧٢ . كنت على وشك الإغفاء في بيتي في ريودي جانيرو ، البرازيل ، حينما ، ولدهشتي ، تهيأ لي أنني أحلم رغم يقيني أني لم أزل يقظاً ، كان الأمر أشبه بشريحة ملونة أسقطت فجأة على شاشة لا مرئية في الظلام أمام عيني المغمضتين . كانت الألوان حادة وواضحة ، وكان التركيز تاماً . كنت أشاهد ما كان يبدو أنه الجزء الداخلي من متجر عادي جداً ، دون كثير معروضات وقلة من الناس تجول في المكان . لم يكن يشبه أي متجر برازيلي كنت أعرفه ، وكنت موقناً أنني لم أره من قبل .

ألفت هذه الرؤيا الفجائية إن لم تكن مثيرة خادعة نوعاً ما ، وشرعت أتفحصها بمزيد من التفصيل . مع ذلك ، حالما ركزت عليها ، اختفت الصورة بنفس الفجائية ، وقبل أن أميّز ما كان يجري ، غفوت .

بعد بضع ليالٍ ، وقعت لي رؤيا أخرى قبل نومي . كانت هذه المرة تنطوي على آلة حمراء كبيرة ، مثل سيارة اطفاء عتيقة . مرة أخرى ، كانت حادة التركيز وساطعة الألوان ، وكانت هذه المرة تشابه على نحو مبهم شيئاً شاهدته قبلاً . كانت سيارة اطفاء أثرية معروضة في ساحة في مركز الريو لعدة سنوات خلت ،

وكنت قد التقطت لها في الواقع صورة ملونة . مرة ثانية ، حين حاولت أن أدقق النظر أكثر ، تلاشت .

بدأت أتطلع لما بدا سريعاً أنه عرض للشرائح كل ليلة تقريباً ، مع أنها ، لا بد من القول ، كانت أشبه بقصاصات مبتسرة لفيلم متحرك ، لأنه كان هناك أحياناً حركة واضحة ، إنما ليس بقدر كبير . كانت المشاهد ممتعة بحد ذاتها ، وكذا مفيدة ؛ كانت تعني أنني كنت على وشك الإغفاء ، وهذا خلق مشكلة أثناء صيف الريو القائظ والدبق مع درجة حرارة في منتصف الليل تصل أحياناً إلى التسعين . كنت أعلم أن أفضل شيء أفعله للتغلب على الحرارة ، والرطوبة هو أن أرقد بهدوء تام كما لو كنت منوماً (بفتح وتشديد الواو) ذاتياً بشكل لم أستطع معه تحريك حتى عضلة ، واتنفس ببطء شديد .

بعد سنتين أو نحوه ، وقعت على مقالة في عدد قديم من (محاضر جمعية البحوث النفسانية) ووجدت لدهشتي أن رؤى ليالي كان لها اسم ، وأن أناساً غيري كانوا شاهدوها . كانت تدعى بالصور النعاسية (هيبناغوغيك) . كذلك علمت أن الأحلام الصغيرة بعد الاستيقاظ مباشرة كانت تعرف بالصور الطاردة للنوم (هيبنوبومبيك) . وقد بدا أن ذلك كان كل ما تأتى لأي كان من معرفة عنها .

ولسرعان ما وجدت أن باستطاعي الحصول على صورة نعاسية كلما رغبت في واحدة تقريباً ، وهاكم ما أفعله ، في حال رغب أي من القراء تجربة ذلك . أغمض عيني وأفكر «أزرق»إلى أن يتغطى مجال رؤياي بالكامل بالأزرق . من ثمَّ أدخل في حالة يدعوها أساتذة زن ZEN* التركيز المسترخي ، وهذا عين ما يدعوه علماء التغذية الأحيائية الراجعة الإرادة السلبية . وهذا لا ينطوي على شيء اطلاقاً

★ زن Zen : مزيج من الصوفية الهندية والطبيعية الصينية . بوذية محدثة في اليابان . تتحاشى التلفظ الكلامي فيها التركيز كل التركيز على النظر إلى داخل طبيعة المرء . في هذا الجانب رأى بعضهم علاقة بين زن وفكرة التحليل النفسي (المترجم)

خلاف الرقود وانتظار ما سيحدث و- هذا هو الأهم- الافتراض أن شيئاً ما سيحدث . لا يترتب عليك القيام بأي مجهود واع ، إنما يجب عليك عدم الارتياب إطلاقاً . أبطل عمل عقلك الأيسر وانتظر . قد تجد من المفيد أن تتصور نفسك تجول في حجرة كبيرة فارغة مطفئاً الأنوار وساحباً المآخذ حتى تظلم حجرة العقل الأيسر بالكامل ويسكنها الصمت .

بعد ذلك أتخيل أني المشاهد الوحيد في دار للسينما في الهواء الطلق فسيحة من النوع الذي فيها تشاهد الفيلم وأنت في سيارتك في مكان ما في الجبال ، منتظراً بدء البرنامج دون أن أعلم (أو أكترث) بموضوع الفيلم . بعد ذلك ألاحظ عادة نجيمات صغيرة تلوح هنا وهناك . اختار إحداها وأركز عليها على نحو غامض وخال من أي غرض . أحياناً تختفي وفي هذه الحالة أنتظر التالية بكل بساطة . في النهاية ، تنفجر إحدى النجوم مشكلة صورة نعاسية تامة . تميل هذه الصور إلى الإرتعاش قليلاً ، لكن يمكن تثبيتها بالممارسة .

لسوء الحظ ، ليس من المحتمل أن تشاهد أية اشارات في الشارع تستدل منها عن مكان وجودك . كنت أحياناً أقع على إشارات مكتوبة وإعلانات . إنما لم أتمكن من فهم الحروف . عدم القدرة على القراءة هذه تشبه تماماً أوصاف سبيري لما يحدث عند ذوي المخ المنشطر في تجاربه ، أو رواية سوزان همبشاير عما يشعر المرء حين يكون مفرادتياً رديئاً ، غير قادر على استيعاب الأحرف والكلمات في تسلسلها الصحيح . في خبرتي ، لا تدوم الصور أكثر من بضع ثوان ، ولا أحاول إطالة مدتها لأن ظهورها يعني أنني في طريقي إلى الإغفاء ، وهذا هو المرمى الوحيد من التمرين .

ما هي الصور النعاسية؟ يبدو كما تفترضها القلة من علماء النفس الذين قد تنبهوا إليها على الإطلاق أنها «مخلفات» آخر فكرة تكون في رؤوسنا قبل أن نغفو . قال ذلك لي أحد علماء الباراسيكولوجيا البارزين بإيمان واعتداد كبيرين . في حالتي أنا هو على خطأ تام باستثناء سيارة الأطفاء البرازيلية تلك لم يحدث أثناء الألف

صورة الأخرى التي لا بد أنه تسنّى لي رؤيتها على مدى أكثر من عشر سنين أن تعرفت إلى مشهد أو شخص أو أي شيء له علاقة من بعيد بأفكاري الأخيرة ، قبل النوم أو كتابي الذي أقرؤه في السرير قبل أن أغفو . تتميز صوري باعتياديتها المطلقة . أكثرها شيوعاً كانت مشاهد لشوارع ، مناظر طبيعية ، أو رؤوس أناس عاديي المظهر على وسائدها ، وقد غفت على ما بدا واضحاً . لقد أجاد عالم النفس بيتر مكيلر في وصفها على أنها «تشابه شرائح الفانوس السحري اختلطت ببعضها وعرضت بالترتيب الخاطىء» . وأضيف أنا ، أمام جمهور من الحضور خاطىء .

إيلمر غرين ، وهو عالم نفس رأى الصور الناعسة بنفسه ، ربطها بتلك الحالات من أحلام اليقظة التي يمكن فيها الحصول على معلومات هامة ، مثل صورة الأفعى التي تعض ذيلها والتي أعطت الكيميائي كيكولي الحل للتركيب الحلقي لجزئية البنزول . يروي د. غرين مشاهدته المسبقة للمبنى الذي كان سيمضي فيه جل عمله في البحوث ، قبل عدة سنوات من انتقاله إلى هناك لأول مرة ، لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل لي . إذا كانت صوري استبصارية ، فأنني مقبل على حياة جد كئيبة .

بعد بضع سنوات من مشاهدتي لصوري ، قرأت مقالاً عن شيء اسمه غنزفيلد . هذه كلمة ألمانية تعني «المجال الكامل» أو في هذا السياق ، «المجال الموحد» . يستخدمه علماء النفس لوصف حالة الحرمان من المعلومات (لكن ليس الحرمان الحسي ، وهذا شيء مختلف تماماً وخطر جداً) ، ومن السهل جداً استحداثه بنفسك . هاكم كيف :

شق كرة طاولة (بنغ بونغ) في المنتصف . استلق تحت اضاءة خفيفة اللون ، وضع نصفي الكرة فوق كل عين ، حاشياً إياهما بالقطن الطبي توخياً للراحة .

(أو ضع منظار الوقاية من الشمس عليهما وصحيفة من الورق الرقيق فوقهما ، وهذا أجده مريحاً أكثر .) كل ما تحتاجه هو قدرتك على الاستلقاء على ظهرك ، مفتح العينين ، دون أن ترى سوى اللون الموحد .

ثم ضع زوجاً من سماعات الرأس على أذنيك ثم صلهما بمذياعك ، في الحالة المثلى ، سيكون لديك شريط من «ضجة بيضاء» متعدد الذبذبات ، لكن التحول إلى حوالي ١٢٠ ميغا هرتز على موجة الأف أم ، حيث لن يكون هناك إرسال إذاعي ، هو الشيء المثالي التالي . أدر مفتاح الصوت إلى أن يصبح الصوت عالياً دون التسبب في الإزعاج. كل ماتسمعه الآن هو ضجة موحدة، وكل ماتراه الآن هو ضوء موحد . أنت الآن في غنزفيلد . ليس هناك اشارة أو معلومات في الضجة أو الضوء . لذلك لا يبقى لعقلك الأيسر ما يفعله . هذا بالطبع مشابه للحالة التي تكون فيها وأنت تنتظر صورتك النعاسية . الفارق هو أنك لست على وشك الإغفاء . أنت على وشك أن تصبح تخاطرياً .

في أوائل عام ١٩٧٠ ، توصل ثلاثة بحاثة ، في وقت واحد تقريباً ، إلى فكرة استخدام الغنزفيلد كوسيلة لاستحداث التخاطر عمداً . وقد كانوا تشارلز هونورتون في نيويورك ، د. ويليام برود في تكساس ، ود. أدريان باركر في أدنبرة . هونورتون ، الذي كان أول من عمل على وضع النتائج الايجابية في شكل طباعي ، كان له علاقة من قبل بأبحاث النوم والأحلام في مخبر ميمونيدس . بعد مراجعة التسجيلات الأولى لخبرات التخاطر التلقائية لاحظ أن الناس الذين تلقوا مثل هذه الرسائل بدوا دائماً في حالة استرخاء عميق ـ نائمين ، في نقاهه بعد مرض ، أو مجرد جالسين لا يفعلون شيئاً .

لذلك ، كان تفكيره ، لماذا لا نعيد خلق حالة الاسترخاء هذه في المخبر ونبيّن ما إذا كانت تساعد على استحداث التخاطر ؟ لقد توفر له الدليل الجيد على أن الصور يمكن انتقالها إلى داخل عقول الحالمين ، لكن العمل كان استهلاكاً للوقت . في الواقع ، لقد استغرق الليل بكامله . واضطر العلماء أنفسهم إلى النوم . كانت فترة نصف ساعة من «النوم» الإصطناعي أثناء ساعات العمل العادية أكثر ملاءمة، ولسرعان ماوجد هورنتون وبعض زملائه أنها، أعطت نتائج مشابهة .

لم يمضِ وقت طويل حتى ألفوا أنهم توصلوا أخيراً ، إلى ما كان يشتكي النقاد على الدوام من أنهم لم يتوصلوا إليه : تجربة ممكنة الإعادة في ظل شروط مخبرية مضبوطة بالكامل تعطي نتائج مهمة احصائياً . توافقت نتائج هورنتون باليوم تقريباً مع الذكرى المئة لمحاولة البروفيسور ويليام باريت الأصلية غير الناجحة لاثارة اهتمام جماعة العلماء البريطانيين بـ «انتقال الفكر» بعد أن اقتنع نتيجة تجاربه أن من الممكن انتقال الفكر .

وصل الاشتغال بغنزميلد إلى انكلترا بمبادرة د. كارل سارجنت ، أول عالم نفس يحصل على شهادة الدكتورا باطروحة عن التخاطر في جامعة كمبردج . ذهب لمقابلة هونورتون وجرّب على نفسه تجربة الغنزفيلد .

«كان لها التأثير القوي عليّ ،» قال لي لاحقاً . «وجدت أنها حققت بالفعل حال متبدلة من الوعي ، حتى أنه حصلت لي خبرة خارج جسدية أولية .» لا بد أن أذكر أن سارجنت ليس ذاك الصوفي ذا العيون الحالمة ، بل ذلك الانبساطي المفعم بالحيوية الذي يلمّ بالكريكيت ، الشطرنج ، وموسيقى الروك وكذا كيفية عمل العقل .

في مخبره في كمبردج مرة أخرى ، شرع في العمل ، وبحدود نيسان عام ١٩٨١ كان قد وضع ١٤٥ شخصاً مختلفاً ضمن روتين الغنزفِلد في ما مجموعة ٤١١ مرة . الشخص الـ ١٤٦ الذي خضع للتجربة كان أنا .

استلقيت على فراش على أرض غرفة في مبنى مخبر علم النفس خلف كلية داوننغ . هيدي بارتليت ، احدى مساعدات سارجنت ، وهي طالبة لمّا تتخرج بعد ، ساعدت في تثبيتي في الوضع المطلوب بنصفي كرة البنغ بونغ والسماعات الرأسية ، وضبط المصباح الكهربائي بشكل ألقى بنوره الأحمر الخافت على عيني المغطاتين . شغّل سارجنت مفتاح صوت الضجة البيضاء حتى كان كل ما أسمعه هسيساً وفرقعة على نحو مطرد . ثم إذا بي أسمعه يقول «حسنٌ ، لقد بدأت التجربة» وهو يطق ساعته الميقاتية ويغادر الغرفة ، موصداً الباب وراءه .

في ذات الحين ، كانت هيدي بارتليت قد انكفأت إلى الغرفة المجاورة لتراقبني من خلال مرآة تسمح بالرؤيا من جهة واحدة وتسجل أي شيء أقوله على الشريط ، بعد تدوين وقت كل عبارة بالضبط . انتقل سارجنت إلى غرفة أخرى في نهاية الممر ، انتقى بشكل عشوائي مظروفاً من أحد الرفوف وكان عليه ستون مظروفاً مماثلاً ، فتحه وأخرج الصور الأربع . ثم استحدث رقماً آخر عشوائياً بين الواحد والأربعة ليحدد صورة التمرين لذاك اليوم . ثم جلس ، والصورة الهدف أمامه ، وحاول مدة ٣٥ دقيقة أن يبعث بمحتوياتها إليّ ، مسجلاً وهو يفعل ذلك انطباعاته عن الصورة .

وفقاً للمصادفة ، يجب على أشخاص التجربة أن يحزروا الصورة الصحيحة مرة كل أربع جلسات لذلك على مدى فترة طويلة يكون عدد الاختبارات الصحيحة حوالي ٢٥ بالمئة . لم يكن هذا ما حدث . فقد وجد سارجنت وعشرة بحاثة مستقلين آخرين على الأقل ، معظمهم في الولايات المتحدة ، أن الأشخاص يختارون على نحو مطرد الصورة الصحيحة بعدد من المرات يفوق كثيراً ما يحدث بمجرد التخمين . كانت نتائج تجارب سارجنت الـ ٤١١ كالتالي :

أول اختيار صحيح : ٣٧,٩ بالمئة . اختيار صحيح ثان (سأشرح ما يعني ذلك في فترة وجيزة) ٢٥,٥ ؛ الثالث ٢٠,٤ ؛ الرابع ١٦,٥ بالمئة . لم يتوقف الأمر عند تفوق الذين «حزروا» بشكل صحيح عن غير الصحيح ، لكن حتى أولئك الذين لم يحزروا ، وضع كثرة منهم الصورة الهدف الثانية وليس الثالثة ، والصورة الثالثة وليس الرابعة . في أي ميدان آخر ينطوي على احصائيات ، يقبل ذلك على أنه أقرب ما يكون! لبرهنة أن ذلك ينطوي على ما هو أكثر من مصادفة . كما سنرى ، لا تعطي الاحصائيات أية فكرة عن نوعية بعض الدلائل .

وإذ تركت وشأني في غنزفيلدي ، استقريت ، أبطلت عمل عقلي الأيسر ، وعزمت على الوصول إلى مرحلة «منصة الانطلاق باتجاه النوم» التي وصفتها سابقاً . لم يكن هذا بالأمر الميسور في الساعة الثانية والنصف بعد ظهر يوم

مشمس ، لكنني كنت عاقد العزم على اختيار نظريتي الخاصة : أنه عليك بحالة النعاس إذا ابتغيت التقاط رسائل تخاطرية . استغرق مني ما أدعوه التصميم السلبي حوالي سبع دقائق ، لكنه ثمَّ، وهاكم ما قلته على الشريط بالضبط .

«آه ، أجل . نحن ننطلق . واضح جداً . حيوان أسود يقف على صخرة ، وخلفية زرقاء . جبل أزرق . واضح جداً ، ذاك .» كان بالفعل واضح ، صورة نعاسية نموذجية ـ الأولى التي توفرت لي إطلاقاً عند الظهيرة . بعد أن اختفت كالعادة ، عادت من جديد ، لكنها كانت مختلفة قليلاً هذه المرة . اختفى الحيوان ، والصخرة اقتربت . كان واضحاً رؤية شقوق وثقوب في سطحها . هذه أيضاً تلاشت واختفت ، ولم يمر أمام عقلي شيء آخر لمدة سبع دقائق ، عندما ظهرت صورة أكثر خفوتاً إنما ممكنة المعرفة . كان تعليقي :

كهرم يشاهد من علٍ . صخور ، نفس السابق ، كقمة جبل ايفرست ، أو شيء ما . منظر طبيعي كئيب جداً . لطخة كبرى في المنتصف ـ ربما هي الفتحة في الأرض ؟» بدأت أشعر بالبرود والكآبة وعند الدقيقة ٢١ لاحظت هيدي بارتليت أني أقول: «ما أزال أرى هذه المناظر الطبيعية المقمرة والمقفرة .» حتى نهاية الجلسة ، بقي ذلك انطباعي الأقوى .

عندما انتهت فترتي ، دخلت هيدي بارتليت وساعدتني في نزع نصفي كره البنغ بونغ . ثم جلست إلى طاولة ، وأخرجت نسخة ثانية من الصور الأربع التي انتقى منها سارجنت مراده . وكانت كتبت لي كل شيء قلته تقريباً على مدى جلسة الـ ٣٥ دقيقة ، والتي سجلت على الشريط كذلك بصورة سليمة ، وطلبت إليّ أن أطابق كل عبارة قلتها مع كل من الصور الأربع وأعطيها درجة . إذا لم يكن هناك أي تشابه على الإطلاق ، عليّ أن أعطيها صفراً ، وإذا كان التشابه قوياً جداً أعطيها درجة تصل إلى ٩٩ .

ما حدث عقب ذلك كان مشوشاً جداً . نظرت إلى الصور الأربع . وشاهدت في الحال أنه كما بدا قد انتقيت نتفاً من ثلاثة منها ، دون ذكر أي شيء

عن الرابعة . كانت خلفية إحداها زرقاء اللون . اثنتان اشتملتا على حيوانات وصخور . واحدة منها اشتملت بالفعل على جبل شكله هرمي في خلفيتها ، وبحيرة مستديرة بيضاء كانت تبدو أشبه بحفرة في الأرض . الأخرى ، وكانت رسماً كاريكتورياً لهيث روبنسون تبين قارباً له نفس شكل ولون صخرتي ، وقد ذكرتني طريقة رسم الفنان للأمواج بانطباعي عن المنظر الطبيعي المقمر . عندما جمعت نقاطي كانت صورة القارب هي التي جاءت أولاً مع وجود هامش صغير .

عندئذ انصرفت هيدي بارتليت لاحضار سارجنت ، الذي أخرج نسخته عن الصورة الهدف. لم تكن، يالخيبة أملي، صورة هيث روبنسون، بل اختياري الثاني . وقد كانت صورة منظر طبيعي للفنان الايطالي غوسيب بالاتزي ، تلك الصورة التي تشتمل على الجبل والبحيرة ، وحيوان يقوده أحدهم بجانب صخرة بيضاوية في أمامية الصورة . ساءلت نفسي ماذا بحق السماء حدا بي لأخطىء فيها. وخمّنت أن ما ضللني كان شكل قارب هيث روبنسون إضافة إلى حجمه. فقد ملأ معظم الصورة . بينما كانت صخرة بلا تزي أصغر بكثير قياساً على صورته . التي كانت تحوي عدة تفاصيل أخرى لم ألتقط لها صوراً في ذهني على الإطلاق . كنت لا أزال أتضايق من نفسي عندما أراني سارجنت صفحة الملاحظات التي دوّنها حين كان يحاول أن يبعث بالصورة الهدف إليّ . برزت في الصفحة عبارة واحدة على الفور : «أشبه ما يكون بسطح القمر» . «لكن هذا عين ما قلته !» هتفت . «انظر ، هناك ما كتبته هيدي : » . ما أزال أرى ذلك المنظر الطبيعي المقمر» . فضلاً عن ذلك فقد قلت ذلك في نفس الوقت تقريباً الذي كتب فيه سارجنت عبارته . وقد كان انطباعي أن ذاك كان مصادفة تامة ، وعندما أراني سارجنت بعض تسجيلات جلساته السابقة ، وجدت أنها كانت أبعد من أن تكون فريدة . على سبيل المثال :

عندما كانت الصورة الهدف تمثل فراشة مشرقة الألوان ، قال الشخص موضع التجربة : «يمكنني أن أرى ما يشبه تبقع الفهد . شكل فراشه .»

عندما كانت الصورة تمثل سباق دراجات نارية ، كان تعليق الشخص كما يلي : «يمكنني أن أسمع سيارة . . . راكب دراجة مرّ بي على دراجة سباق . . . سيدة عجوز ، وبجوارها رجل قصة شعره على طراز ما كان سائداً عام ١٩٢٠ . » وقد تطابق شخصان في الصورة مع هذا الوصف تماماً .

شخص آخر تحت التجربة ، صحفي من فليت ستريت ، وضعت له صورة هيث روبنسون الكاريكاتيرية كهدف . أشار مرات عدة إلى وجود ماء وقارب خلال كامل جلسته ، ذاكراً القليل فيما عدا ذلك . «لا يزال شعوري بالماء والقارب ،» قال في إحدى المراحل .

سمىّ أحد الأشخاص بالفعل الصورة بشكل صحيح . قال آخر : تلازمني فكرة رجال ومحطة إطفاء . » كانت الصورة الهدف مجموعة من الرجال أثناء التدريب في محطة اطفاء كمبردج . حتى أن الشخص ذكر أن أحد رجال الأطفال يلتفت برأسه صوب الكاميرا ، وهذا تفصيل لم يفطن إليه سارجنت .

بعض التجارب أعطت دلائل خادعة للتنبؤ المسبق . أحد الهولانديين الشكاكين كان حلم قبل جلسة الغنزفيلد بليلة أن الهدف سوف يكون صورة سوريالية لما جريت . وقد تبين بالنتيجة أنها لدالي ، اللّوحة السوريالية الوحيدة في مجموعة سارجنت كلها . الصحفي البريطاني روي سثيمان روى رؤيته لصور راقصين اسبان ومعبد ماياني ، لا يرتبط من قريب أو بعيد بصورته الهدف . عندما وصل البيت ، شغل جهاز تلفازه وشاهد على الفور مجموعة من الراقصين بزي اسباني في فيلم عن المكسيك ، بلد المايانيين .

يبدو أن خبرة الجنزفيلد تثير تخمينات موفقة ، على الأقل ، وقد أظهر سارجنت أن بإمكانها أن تفعل أكثر من ذلك . في سلسلة من التجارب ، صمّم على أن يتبين ما إذا كان أشخاص التجارب الناجحين سابقاً قادرين على تسجيل نقاط أكثر ممن كانوا غير ناجحين . بالتأكيد كان ذلك . مجموعة «الفشل» قامت بـ ٢٧,٣ بالمئة انتقاء أول صحيح ، وهذا يقارب تماماً ما تتنبأ به المصادفة ، بينما

حقق الممتازون معدلاً مدهشاً ٨٣,٣ بالمئة ، يتوقع الوصول إلى هذه النتيجة بالمصادفة لوحدها مرة فقط ، في ستة عشر ألف تجربة مماثلة . التخاطر ، كما يبدو ، يمكن تعليمه مثل أية مهارة أخرى .

آه ، يقول المتشككون ، لكن الحوادث غير المحتملة تحدث فعلاً ، إن فرص نجاحك في مراهنات كرة القدم هو واحد من عشرين مليوناً . ومع ذلك يكسب أحدهم الجائزة الكبرى عدة مرات كل موسم . هذا صحيح ، لكن هذا الاحتمال معروف مقدماً. في حالة تجارب الغنزفيلد، ليس من المعروف مقدماً أنه ستكون هناك نتيجة على الإطلاق ، وفرص قول عبارة عن القوارب، رجال الإطفاء ، الفراشات . . . الخ ، هي واحد من لا نهاية ، حيث هناك عدد لا نهائي من موضوعات الأهداف المحتملة . أما بالنسبة لفرص التقاطين تخاطريين واضحين في نفس اليوم بمجرد المصادفة برفع الرقم إلى لا نهائية واحدة للتربيع ، إن كان هناك مثل هذا الرقم . ومع ذلك فقد كان هذا ما قمت به .

لقد أخطأت في محاولتي الأولى ، رغم أني عددت انطباعاتي عن القمر ، الجبل ، البحيرة ، الحيوان على أنها اصابات جزئية ، على الأقل ، وكان من العزاء العلم فيما بعد أن سارجنت طلب إلى حكم مستقل أن يراجع عباراتي ويضع لها علامة بالرجوع إلى الصور الأربع نفسها . وقد عدّ الصورة الصحيحة فوزاً واضحاً .

وددت المحاولة كرة أخرى في الحال ، لكن الوقت كان متأخراً وكان سارجنت على ارتباط بموعد في المساء . ثم طرأت لي فكرة . «انتبه» قلت «لماذا لا نجرب هذا من مسافة بعيدة ؟ سأذهب إلى البيت في لندن وآوي إلى فراشي في الوقت نفسه الذي تأوي فيه أنت إلى فراشك هنا في كمبردج . سأدخل في حالة نعاسية مناسبة ، وخذ أنت أية صورة تشاء وحاول أن تبعث بها إلى هنا . لن تكون التجربة تامة ، كما هو واضح ، مجرد واحدة غير رسمية لمصلحتي .»

وافق سارجنت ، وجودنا الساعة ١١,٤٥ مساء كوقت يلائم كلينا . سيرقد هو في الفراش ويركز على صورة لمدة خمس عشرة دقيقة وليس لمدة خمس وثلاثين كما هي العادة ، بينما أنا أدوّن أية انطباعات لدي ، إن وجد ، وأرسلها بالبريد صباح اليوم التالي إلى تريفور هارلي ، أحد أكثر زملاء سارجنت البحاثة خبرة بالجنزفيلد . سيقوم هو بوضع العلامة ، للنتيجة التي أسجل ، وذلك باختبار صحة أقوالي بعد الرّجوع إلى كل من الصور الأربع دون معرفة أيها وقع اختيار سارجنت عليها .

كما شاء الحظ ، فقد أقلني القطار البطىء إلى لندن عوضاً عن السريع . ما إن وصلت البيت وتناولت شيئاً ما ، حتى حان الوقت تقريباً كتجربة المسافة البعيدة . لم أكن أشعر بالنعاس . لكنني قمت بواجبي وأويت إلى فراشي ، ومفكرتي بجانبي ، وأغمضت عيني في منتصف الليل إلا ربع ساعة تماماً .

لمدة خمس عشرة دقيقة لم أرَ شيئاً على الإطلاق . إخفاق تام . أوه حسناً ، كان تفكيري ، بينما أضأت المصباح بجانب سريري وبدأت القراءة ، لا يمكنك كسب كل شيء . . . .

بعد ربع ساعة ، شعرت بالنعاس قليلاً ، وساءلت نفسي عمّا إذا كانت المحاولة تستأهل القيام بها . هناك كارل العجوز المسكين يكدّ على مبعدة خمسين ميلاً ، محاولاً أن يبعث برسالة إليّ . أقل ما بإمكاني فعله هو أن أحاول التقاطها ، وإذا لم تكن المسافة حاجزاً ، لماذا يكون الزمن ؟ صممت على الحصول على صورة نعاسية ولو اضطرني الأمر لبقاء الليل بكامله ساهراً .

أطفأت مصباحي وأعطيت دماغي تعليمات صارمة للمتابعة . ومن ثمّ دخلت في أقصى حالة سلبية كانت بمقدوري ، واستلقيت وانتظرت ، لمدة عشرين دقيقة اخرى لم يكن هناك شيء لا مساحة زرقاء ، لا نجوم ، لا أفكار من أي نوع . ثم بالفجائية المعتادة بانت . كانت صورة سريعة جداً ، لكنها واضحة كالعادة . للمرة الأولى كما أذكر ، لم تكن ملونة ، بل سوداء مائلة للزرقة وبيضاء .

وهذا زاد من وضوح خطوطها الرئيسية ، ولم يكن هناك مجال للبس يحول دون البت في أنها كانت شكل إنسان يقف على قاعدة تمثال ، ووراءه هالة من الضوء الساطع . لسبب ما قرّ رأيي على أنها صورة للرئيس ماوتسي تونغ ، القائد الصيني وقتذاك .

تلمست يدي طريقها إلى مفتاح المصباح ، قبضت على مفكرتي وكتبت : «شكل على قاعدة تمثال . ماو . ضوء» رسمت رسماً موجزاً لما رأيت ، سجلت الوقت ١٢,٣٥ ـ ثم خلدت إلى النوم (دون صور أخرى) وأنا راض أنني على الأقل حاولت .

هذا ما كتبته صباح اليوم التالي إلى تريفور هارلي : «لم أرَ شيئاً حتى ١٢,٣٥ ، حينها التمع فجأة بشكل واضح إنما لفترة قصيرة شكل على قاعدة تمثال ووراءه ضوء ساطع ، وتكون لديّ انطباع أنه كان ما وتسي تونغ . هذا كل شيء .»

بعد بضعة أيام ، علمت أن هارلي قد طابق عبارتي الوحيدة مع كل من الصور الأربع التي اختير الهدف من بينها ، كانت النقاط المسجلة بالنسبة المئوية ١٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٥ . لم يكن عسيراً عليه تقرير أي الصور كانت أكثر مطابقة لوصفي ، وأكد سارجنت أنها كانت فعلاً الصورة التي حاول إرسالها إليّ . كانت الصورة بطاقة بريدية منقولة عن لوحة لويليام بليك تدعى «يوم سعيد» ، وأنا موقن أني لم أرها من قبل . (لقد كان عندي دائماً شعور بالكراهية نحو فن بليك) وهي تبين شكل إنسان يقف على صخرة ووراءه حالة ساطعة مع الضوء ، ولا شيء آخر .

كانت هناك فروق ، بالتأكيد . شكل بليك كان ملاكاً ، ذكراً بالتأكيد ، عارياً ، ذراعاه ممدودتان . (أعتقد أن هذا شنيع) . كان الشكل في صورتي مكتسياً، وكانت الذراعان مضمومتين ، ويقف على قاعدة مستطيلة ، وليس صخرة مسننة . ومع ذلك بقيت الحقيقة ـ وكان الدليل على برهنتها مكتوباً ـ وهي

أنني سميت بنجاح عناصر الصورة الثلاثية الوحيدة : الشكل ، القاعدة ، الهالة ، كان ذكري لماو تأويلاً لما كنت رأيت وليس وصفاً . يبدو أن عقلي الأيمن قام بعمله بدقة تقرب من مئة بالمئة ، وتدخل عقلي الأيسر باستدلال منطقي لكنه خاطىء .

هذا ما حدث بالضبط في جلسة كمبردج . لقد التقطت انطباعات العقل الأيمن بشكل صحيح ، وقمت باستدلال منطقي خاطيء وأنا أسجل نقاطي . لو لم يتدخل العقل الأيسر لكنت اخترت الصورة الصحيحة ولفازت بالنقاط ، كما كان هارلي قد فعل (كانت درجاته ٦٥ ، ٥٣ ، ٤٢ ، ٣٤). استخلصت من تجربتي الاثنتين ، أن حالة النعاس كانت حالة من المحتمل أن يقع فيها التخاطر (أو التوافق بالمصادفة) . وأن عليَّ كذلك أن أتعلم الثقة بعقلي الأيمن .

بعد أربعة شهور ، في آب ١٩٨١ ، ألقيت محاضرة في مركز هيز للمؤتمرات في سوانويك ، ديربي شاير ، في «بث الصور بالغنزفيلد» أمام جمهور من الحضور يبلغ خمسة وثمانين شخصاً، معظمهم كبار في السن، وكَثير منهم روحانيون. كانوا يحضرون ندوة مدتها اسبوع نظَّمها معهد وين وود وتشارلز بولين للتكنولوجيا النفسانية والروحانية . اعتقدت أنها كانت مناسبة طيبة لتجربة عفوية . لن أتحدث في التكنولوجيا النفسانية فحسب بل سأري الحضور كيفية استخدامها هناك وإذ ذاك .

كنت أعلم أن بإمكاني التعويل على حضور متعاطف ، بفضل المزج السحري لجمال الموقع الريفي ومهارة وين وتشارلز في خلق مجموعة متجانسة في الحال من أفراد من أنحاء من البلاد شتى ، كنت محظوظاً كذلك لكون ما ثيو ماننغ قد قدم عرضاً فعالاً لطرائقه الشفائية قبل أن أتحدث أنا ، وحينما جاء دوري في الكلام كان الحضور في حالة مثالية من الاهتمام والترقب .

بدأت بتاريخ موجز عن أبحاث الغنزفيلد ، ومن ثمّ أعلنت أننا سنجري تجربة في الحال . سأكون أنا المرسل والحضور كلهم سيكونون المستقبلين . من الواضح أنها ستكون نسخة أخرى مبسطة جداً عن طريقة سارجنت ، شرحت

لهم ، وكان هدفي الرئيسي أن أبينّ للناس كيف يمكننا توقع حدوث التخاطر ، وكيف يمكنهم تجريبه في المنزل بأنفسهم .

ولفّت جهاز راديو الأف أم على ١٢٠ ميغا هرتز ورفعت الصوت حتى امتلأت الغرفة هسيساً وفرقعات بيضاء» . كان عليَّ أن أعمل بدون كرات البنغ بونغ ، وطلبت إلى الناس إمّا أن يحدّقوا من خلال النافذة الكبيرة بالسماء الرمادية الملبدة أو أن يغمضوا أعينهم . يمكنهم حتى أخذ سنة من نوم إذا شاؤوا ، إنما يجب أن يتذكروا أية صور يلتقطونها قبل إغفاءتهم .

كنت أحضرت أربع بطاقات بريدية ، مرقمة من واحد حتى أربعة ، واخترت هدفي عن طريق طلبي إلى أقرب شخص أن يقرأ آخر عدد على ورقة الجنيه . كان الرقم «٧» لذلك أخذت البطاقة ٣ (٤ + ٣) ، وكانت منظراً لتشاتسورت ، وهو مسكن انكليزي فخم مشهور ، ظهر في الصورة واجهة المبنى ، جسر ، نهر وأرض كثيفة الغابات .

بعد أن انكفأت إلى خلف شاشة نصبت في حينه على المنصة ، جلست وحدقت إلى تشاتس ورث، وأنا أردد الكلمات التالية في عقلي «قلعه ، جسر، نهر ، أشجار» وأتخيلها تملأ الغرفة ، عندما انتهى الوقت ، أبطلت عمل المذياع ، انتظرت واحداً أو اثنين من العجائز ليستيقظوا ، ومن ثمَّ طلبت إلى الناس أن يعلنوا بصوت عالٍ عن أية انطباعات قوية محددة تلقوها . بين الكلمات الأولى التي سمعت كان «أشجار ، نهر جسر» ، كان هذا مذهلاً ، لكن جهدت ألا يظهر أي رد فعل .

ثم أمررت البطاقات الأربع جميعها على الحضور ، طالباً إلى الناس أن يستجيبوا لانطباعاتهم الاجمالية وألا يجهدوا أنفسهم في التوصل إلى التخمين الصحيح . إن لم يكن لديهم أية انطباعات على الاطلاق ، قلت لا بأس عليهم أن يحزروا . عندما شاهد كل شخص البطاقات ، أمسكت كل واحدة بدورها ، قدمت وصفاً تفصيلياً لها وطلبت رفع الأيدي .

كانت البطاقة الأولى تمثل الجزء الداخلي من مطعم كندي ؛ المشهد الوحيد من بين الأربعة الذي كانت لي صلة شخصية به . كنت تعرفت إليه بعد تناول طعامي هناك أوائل ذلك الشهر . كانت الثانية لوحة فلامنكية من القرن السادس عشر تمثل مدينة مسوّرة بقرب نهر . الثالثة تشاتس ورث ، وكان يظهر في الرابعة بعض أشجار الصنوبر الفرنسية ولا شيء سوى ذلك . نتائج الاختيارات الأولى ، بالنسبة المئوية ، كانت :

المطعم الكندي ١٠,٦ ، اللوحة الفلامنكية ٢٤,٧ ، تشاتس ورث ٣٥,٣ ، الأشجار الفرنسية ١٦,٥ ، لا اختيار ١٢,٩ ، «حسناً فعلتم ،» قلت «لقد أصبتم» أوضحت لهم أن هذه لم تكن تشبه اطلاقاً التجربة المضبوطة (الموجهة) ، بجرد عرض غير رسمي لكيف يمكن التسبب في حدوث التخاطر . أي عالم كان سيلمح أخطاء إجرائية في طريقتي ، أخطرها الإجابة بصوت عالٍ . يمكن أن يكون لذلك تأثير موح على من لم يقرّ رأيه بعد من الحضور . كان السبب الذي دعاني إلى ذلك هو الحصول على انطباعات فورية قبل أن يتسنّى للناس الوقت ليعملوا تفكيرهم .

بعد ذلك لاحظت شيئاً غريباً نوعاً ما. لقد اخترت البطاقات بشكل عشوائي من مجموعتي الخاصة ، ولم أدرسها بعناية تامة عن عمد . الآن ، لاحظت أن ثلاثة منها كان بينها قاسم مشترك ، كان هناك أشجار في كل منها ، أشجار ونهر في اثنتين ، وشجر وقلعة في اثنتين . (تشاتس ورث ليس قلعة في الواقع ، لكنه بيت كبير جداً .)

يمكن الجدال من كلا الوجهين إن هذا جعل نتائجي أكثر أو أقل أهمية . شخصياً ، كنت سأفكر أنه بما أن هناك قاسماً مشتركاً بين ثلاث من الصور ، فإن فرص التخمين ستكون مقسمة بالتساوي بينها ، إن لم يتعدَّ العمل مجرد التخمين . ومع ذلك لم تنقص البطاقة الصحيحة سوى بخمس أصوات عن تينك المحتويتين على أشجار معاً .

وقد قادت تجربتي مع ذلك إلى نتيجة مقبولة علمياً . قالت لي واحدة من الحضور إنه لم يكن عندها تردد في انتقاء الصورة الصحيحة ، وكانت خبرت التخاطر في عدد من المناسبات .

قالت إنها ستكون مسرورة للمشاركة في تجربة ملائمة ، لذلك قمت على الفور بإعداد الترتيبات لسفرها إلى كمبردج ليتم اختبارها على يد كارل سارجنت . سافرت بعد بضعة أيام ، ومرة أخرى اصابت الهدف الصحيح .

بالنسبة إليّ كانت التجربة جديرة . فقد أكدت اعتقادي أن التخاطر يمكن التسبب به عفوياً ، شريطة أن تكون الشروط صحيحة ، ويتم التقيد بثلاثة مبادىء بسيطة :

١ ـ جميع الفرقاء المعنيين يجب أن يريدوا ويتوقعوا النجاح .

٢ ـ ابطال عمل العقل الأيسر عند المستقبل (المتلقي) كلية .

٣ ـ يجب ألا يكون هناك دخل من معلومات عادية .

ليس بوسعي أن أعد كل من يجري على شاكلة التجارب التي وصفت أنه سيصيب نجاحاً من المرة الأولى . لا يزال هناك الكثير مما لا نعرف عن التخاطر ، وأنا أركز هنا على ما نعرف . كل ما أزعمه هو أن طريقة الغنزفيلد هي طريقة سهلة ليكتشف المبتدئون ما إذا كانوا يصيبون نجاحاً فيها . تغطية العينين بنصفي كرة البنغ بونغ والاصغاء إلى الضجة البيضاء ليسا بالأمر الأساسي . من الممكن جداً ممارسة الانتقال التخاطري في بيتك دون مساعدين على الغنزفيلد الأولى . لا تزال هي أفضل الموجود ، وتستأهل النظر فيها بشيء من التفضيل .

عام ١٩٣٠ نشر الروائي والمصلح الاجتماعي ابثون سنكلير تقريراً مفصلاً يتناول سلسلة طويلة من التجارب في ما ندعوه التخاطر المنزلي ، في كتاب دعاه (اللاسلكي العقلي) . كان هو نفسه عادة المرسل، وزوجته ماري كريج سنكلير المستقبل .

مذ كانت طفلة كان يظهر عليها بشكل دوري دلائل التخاطر ، كما يفعل كثير

من الأولاد قبل أن يكتمل نمو عقولهم اليسرى ، في عمر الثمانية تقريباً ، وكانت تلميذة متحمسة للعقل البشري . كانت ترغب معرفة «ما هي حقيقة العقل ، وكيف يعمل ، وماذا يمكن العمل به» . إلى ذلك ، شدّد زوجها ، «لم تكن هناك امرأة أكثر «عملية» منها ، ينصبّ اهتمامها على الهنا والآن ، الأشياء التي يمكن رؤيتها ولمسها» .

وهو يضرب عدة أمثلة على مقدرتها على العثور على الأشياء المفقودة ، حتى بواسطة الهاتف ، والإعلان عما هو وشيك الحدوث . في اليوم الذي انتحر فيه صديقها الكاتب جاك لندن داخلها شعور مفاجىء بالقلق عليه ، وكانت دائماً قادرة على كشف ما كان زوجها يعمل بواسطة الطريقة المعروفة الآن بالرؤية من بعد . هذه مقدرة تحسدها عليها الزوجات الأخريات .

كانت أكثر مواهب ماري بروزاً وبفضل زوجها أفضلها توثيقاً، تكمن في إعادة رسم الصور من مسافة . يعمد أبتون إلى رسم شيء ما على قصاصة من ورق . بينما تقوم ماري ، وهي في غرفة مجاورة ، بالاسترخاء ، والتركيز ، ورسم ما وصل إلى «لاسلكيها العقلي» أو كتابة وصف للصورة ، تكررت هذه التجربة على أيديهما مئات من المرات ، وكانت النتائج معبّرة ، كما عندما رسم أبتون بقرة مضحكة ولسانها مدلى وكتبت ماري «بقرة عديمة القرون لسانها مدلىّ» ، أو عندما رسم مركباً شراعياً كتبت ببساطة «مركب شراعي» .

«أقول لكم ـ ونظراً لأهميته فقد كتبته بحروف كبيرة التخاطر يحدث» ، خلص سنكلير ، وهو يشدد على أنه كما أي شيء آخر يمكن «استثماره واستخدامه عمداً» كان بين الشهود الكثر على تجارب آل سنكلير المنزلية آلبرت اينشتاين ، الذي كتب مقدمة لكتاب (اللاسلكي العقلي) قال فيها إن الكتاب يستحق أن يحظى «بأقصى اهتمام حاد ، ليس من سواد الناس فقط بل علماء النفس أيضاً» . وقد لقي هذا الاهتمام ، لحسن الحظ ، من أحد أبرز علماء النفس في الولايات المتحدة ، البروفيسور ويليام ماكدوغال ، الرئيس الأسبق لقسمه في جامعة

اوكسفورد والذي شغل المنصب نفسه في جامعة هارفارد . كذلك فقد شاهد عرضاً مباشراً لقدرات ماري ، وقال لسنكلير إنهما أثرا في قراره انشاء مخبر الباراسيكولوجيا [1] في جامعة ديوك في ديرهام ، كارولينا الشمالية ، مع مساعديه د. ج. ب . ولويزا راين .

وهكذا تركت ماري سنكلير أثراً كبيراً على العالم الأكاديمي . كان أكبر اسهاماتها في البحث النفساني قيمة وصفها المفصل لكيفية عملها . وقد أوضح ماكدوغال، أن هذا كان يتماشى تماماً مع ما كان معروفاً من قبل : أن «حالة أو موقفاً عقلياً سلبياً فريداً هو الشرط الأفضل إن لم يكن الأساسي للتواصل التخاطري» .

حتى بعد خمسين سنة ، تدعو الحاجة إلى التعبير بوضوح أكبر عن تعليماتها لتحقيق هذا الشرط . فهي تملأ ست عشرة صفحة من كتاب زوجها ، وسأقوم بعرضها بشكل موجز في الحين الذي أدعو فيه كافة المتحمسين من تخاطر قم ـ به ، بنفسك أن يرجعوا إلى الأصل .

تبدأ بالتشديد على أهمية التركيز باسترخاء ، أو كما تصفه هي ـ ليس التفكير ، بل كبح الفكر ، (كما أصفه أنا ـ اغلاق العقل الأيسر) . «ربما» تقول هي ، «يمكن أن يكون لدى كل منا كينونات عقلية عدة ، أو عقول ، وأحدها ينام (يكون لا واعياً وخالياً من أي شيء) بينما يشرف الآخر على الحالة» .

تتابع لتقدم وصفاً ممتازاً للحالة النعاسية ، التي يبدو أنها أجادت فهمها قبل أن تسترعي انتباه علماء النفس بزمن . كذلك استنبطت طريقة للدخول فيها أثناء النهار ، وإطالتها حسب الرغبة ، وهذا ينطوي على الوعي بالحالة ومجرد العزم على

---

(١) الباراسيكولوجيا : فرع من علم النفس يبحث في التخاطر والتحري النفساني (المترجم) والبعض يترجمها «علم النفس المصاحب أو المجانب» ـ د. فاخر عاقل مثلاً .

نحو سلبي على إطالتها . قد يبدو هذا غامضاً ، لكنه فعلاً كل ما عليك أن تفعل .

وهكذا بعد وقوفها بشكل متوازن على منصة الانطلاق نحو النوم إنما عاقدة العزم على عدم السقوط عنها ، كانت تأخذ قصاصة من ورق ، تمسك بها فوق ضفيرتها الشمسية ، وتصدر أمراً عقلياً إلى عقلها اللاواعي ليخبرها بما كان عليها . يجب أن يُعطى الأمر «بوضوح وإيجابية» ، لكن لا بأقل ما يمكن من الجهد العقلي » .

«كرر ، كما ، كنت تتحدث مباشرة إلى ذات أخرى : «أود أن أرى ما يوجد على هذه البطاقة» . ثم اخلد ثانية إلى استرخاء من خواء وابق على هذا الخواء بضع لحظات ، ثم حاول برفق ، دون جهد ، أن ترى أية أشكال قد تظهر في الفراغ الذي فيه تنظر بعينين مغمضتين . لا تحاول أن تستحضر في ذهنك شيئاً ، انتظر فقط بترقب ودع شيئاً ما يأتي» .

أمر غريب كيف نبدو جميعاً أننا نكتشف أشياء بأنفسنا . تصف هذه التعليمات الطريقة التي استنبطتها بنفسي بعد أربعين سنة بشكل أفضل مما في مقدوري ، وعندما كتبتها (ماري) لم يكن أحد في الغرب قد سمع حتى بتأمل أو استغراق زن ZEN ، أو تلك العبارات من مثل «التركيز باسترخاء» أو «الترقب الواثق» ، أشك في أنها قد قرأت وصف جيمس بريد في «الفكرة الأحادية» ـ تثبيت العقل على فكرة واحدة ـ وليس من المحتمل أنها كانت تعرف شيئاً عن التغذية الاحيائية الراجعة أو وظائف نصف كرة المخ عام ١٩٣٠ .

كانت تعلم الكثير عن عقلها الخاص بها ، مع ذلك ، وكانت تعلم كيف تطلقه يعمل لصالحها . لو كانت أجهزة التسجيل متوفرة في زمانها ، لأمكنها كما أعتقد جازماً أن تحصل على نتائج أفضل مما توفر لها ، إذ لم تكف عن كسر حالتها النعاسية كي تدون أجزاء الصور كما ظهرت لها .

لو لم تفعل هذا لكانت نسيت ذلك على نحو مطرد . لهذا يستعمل بحاثة الغنزفيلد أجهزة تسجيل ؛ إذ من الأسهل بكثير على أشخاص التجارب أن يتمتموا أمام ميكروفون وهم في حلمهم من أن يستووا جالسين ليدونوا الكلمات على الورق .

أحد أكثر تعليمات ماري سنكلير فائدة يكمن في كيفية التمييز بين الانطباعات الكاذبة والمادة الحقيقية . وقد اكتشف الطريقة عن طريق انخراطها في دور كاذب ، أي القيام بالحركات التي ينطوي عليها إجراء التجربة إنما دون وجود أيما هدف . عند امساكها بصحيفة بيضاء أمام جسمها ، لا تني تتلقى صوراً ، تتكامل عن طريق تداعي الذكريات ، الحقيقة أو المتخيلة ، وقد علقت على كيفية حدوث ذلك بعناية شديدة .

«علمت ، على نحو مبهم نوعاً ما ، كيفية سلوك هذه الأشياء ، وكيف شعرت حيالها ، وقد مكنني هذا ، عندما تحققت لي رؤيا حقيقية لاحقاً ، من ملاحظة أن هناك فارقاً بين الطريقة التي وردت فيها هذه الرؤيا الحقيقية والطريقة التي وردت فيها الرؤى «البطالة») لا يتوفر ما يضاهي وصفها التام لهذه الصور النعاسية من ناحية دقة الملاحظة والتعليق الذكي .

بعد أن دربت نفسها عن طريق ممارسة هذه الطريقة ، أمكن لماري مرات ومرات أن تلتقط صورة لما كان يرسمه أبتون في غرفة أخرى . لم تنجح كل مرة ، وكانت أول من لاحظ ما يعرف بالأثر الانحداري ، حيث وفاقاً لذلك تميل نتائج التجارب التخاطرية في المبتدأ إلى الإيجابية لكن يقل نصيب نجاحها أكثر فأكثر عقب ذلك ، بالرغم من الالتقاط الناجح أحياناً مرة أخرى بنهاية دور طويل إذا جلست في مخبر تخمن الرموز على البطاقات ، فإنك تملّ لا محالة من جلوسك الثابت قبل أن يتسنّى لك القيام بتجارب تنال معها مرضاة الاحصائيين .

التخاطر ، كما أية ظاهرة تلقائية أخرى ، مثل الزلزال أو الوقوع في الحب ، لا يحدث إلا عند توفر كافة الشروط الصحيحة تماماً . كان من الجائز أن أثق بمعرفة الجميع لذلك ، لكن من الواضح أنهم لا يعرفون . البروفيسور مارك هانس ، وهو عالم نفس في جامعة سوانسي تستشيره وسائل الإعلام بشكل دوري كونه خبيراً في الباراسيكولوجيا ، قدم لنا كلماته الحكيمة هذه في فيلم تلفزيوني عام ١٩٨٣ . «إذا كان الجميع تخاطريين ، فبإمكانهم تبيان أثر ذلك لأي كان . سأكون راضياً تمام الرضى لمجرد الحديث مع الشخص لبضع دقائق والطلب إليه أن يقول ماذا كان يجول بخاطري» . إن حقيقة أن مئات من الناس قد أظهروا أثره بسهولة تامة في مخابر نفسانية في كافة أرجاء العالم قد فاتته على ما يبدو .

أما وقد توفر لنا الآن نموذج قائم على الشروط التي يحدث فيها التخاطر في الحياة الواقعية فإن كل ما على الناقد النزيه والجاد أن يفعله هو أن يطبقه وينظر إلى النتائج الاحصائية .

يمكننا جميعاً في بيوتنا تبيّن ما إذا كنا تخاطريين أم لا .

«الحقيقة» يقول راسل تارغ وكيث هاراري ، «هي أن معظم الناس مهتمون بالخبرات النفسانية لأنها تحصل لهم من قبل .» ما فتئت تحصل لدى عدد كبير من الناس في ظل شروط مشاهدة ومضبوطة على شكل «الرؤية من بعد» للأشياء البعيدة والتي ابتكرها عام ١٩٧٢ كل من تارغ ود . هارولد بوتهوف في معهد ستانفورد للبحوث (الآن معهد ستانفورد الدولي للبحوث) . في هذه التجارب يجلس الأشخاص موضع التجربة في غرفة عادية ، من دون زخارف الجو المحيط بغنزفيلد ، ويعلنون ببساطة عن انطباعاتهم عن الموقع الذي اختير بشكل عشوائي والذي سافر إليه أحد القائمين على التجربة . وسواء تمّ ذلك بطريقة الاستبصار المباشر ، التخاطر بين الشخص موضع التجربة والقائم عليها أو أكثر ظواهر الـ PSi مجلبة للحيرة ـ استباق الحوادث ـ فهو أمر لا يزال غير واضح .

ما هو واضح أن ذلك يتم فعلاً بطريقة أو بأخرى. تشير بعض التقارير الخمسة عشر الناجمة المنشورة (على عدة بحاثة مستقلين) إلى أن بإمكان بعض الناس حتى وصف موقع هدف قبل أن يصل المجرب إلى هناك، أو حتى قبل أن يتم اختياره (الموقع). هذه هي بعض أفضل الدلائل التي تمّ الحصول عليها حتى الآن عن استباق الحوادث، وهو جزء من طيف الـ PSi أبعد من نطاق هذا الكتاب لكنه يستحق ذكراً موجزاً.

عام ١٩٨٣، نشر البحاثة جون غرتز من كاليفورنيا نتائج تجربة تخيلية بشكل خاص رأى فيها سلسلة من الشرائح جمعت ضمن مفاهيم نمذجة أساسية من مثل خبرة الولادة، الهروب، العالم السفلي، الموت. في غرفة مجاورة، تمّ تشجيع موضع التجربة على الدخول في حالة نعاسية والاعلان عن انطباعاته بصدد ما كان غرتز يحاول أن ينقل.

أصابت بعض تخيلاته الهدف تماما؛ بينما كان غرتز ينظر إلى شريحة تبين آدم وحواء وهما يقتادان خارج جنة عدن، قال: «نغادر الجنة، أنا وفتاة».

المرة تلو المرة كان الشخص موضع التجربة يدلي بأقوال تتلاءم تماماً مع موضوع مجموعة الشرائح التي كان غرتز يراقبها، أثناء مجموعة مكرسة لتكافؤ الضدين عند المرأة، قال: «زوجتي جن جنونها على لا شيء. فجأة أرى وجهها وقد استحال كالحاً. صدقيني لم أرك على هذه الحالة من قبل قط».

عندما كان الموضوع الهروب، قال: «كان هناك إحساس بالطيران عندما قفزت. إني أنظر من شرفة إلى ذاتي في الأسفل وأنا على مسرح أرقص».

في اليوم الأول من تجربة الأيام الثلاثة، أعطى الشخص وصفاً تفصيلياً للوحة تبين ثلاث فتيات متشابهات في الهيئة في مكان ريفي، ورجل يراقبهن «كنّ جميعاً نفس الفتيات، كالثلاثي،» قال، وقد ظهرن كذلك بالفعل. المثير في هذا الوصف الدقيق أن الشريحة موضع البحث لم تشاهد حتى بعد ٢٤ ساعة.

وقد قامت المجلة التي نشر فيها تقرير غرتز بحذف الفقرة التي تصف هذه الحادثة ، معتبرة إياها «في غير محلها» .

قام غرتز بتسجيل الموجة الدماغية للشخص موضع تجربته خلال كامل الجلسة ، مقدماً بذلك الدليل الذي ، رغم كونه غير قطعي بالتأكيد ، يشير إلى أن لحظة منصة الانطلاق نحو النوم هي واحدة من الأرجح أن تصل فيها الرسائل التخاطرية إلى هدفها . حسب اعتقاد أستاذ الفلسفة في جامعة كمبردج البروفيسور سي . دي . برود ان «من المرجح جداً أن الخارقي في أشكال المعرفة والسببية فاعل على نحو متواصل في خلفية حيواتنا السوية» .

إن كان هناك ما هو دائم الفعالية في خلفية حياتي ، فإني أرغب في معرفة المزيد عنه يتسلق بعضهم جبل افرست لأنه قابع هناك ،يبحث آخرون في التخاطر للسبب نفسه . يبدو هذا السبب وجيهاً جداً بالنسبة لي .

فيلسوف آخر ، البروفيسور هـ . هـ . برايس في جامعة اكسفورد ، اعتقد أن «التخاطر شيء يجب ألا يحدث اطلاقاً ، إذا كانت النظرية المادية صحيحة . لكنه يحدث بالفعل ، لذلك يجب أن يكون هناك خطأ جسيم فيما يتعلق بالنظرية المادية ، مهما تكن الحقائق الطبيعية ، التي تدعمها متعددة ومهيبة ». وهذا يوضح سبب عدم تزايد البحث في PSi . إنها تهديد كبير للأمن الأكاديمي .

«لست أرغب في أن أكون مؤمناً بالتخاطر» ، اعترف ابتون سنكلير بعد أن وفرّ لنا بعض أفضل الأدلة عليها ، «لأني لست أعلم بماذا أخرج منها ، ولا إلى أية نظرة في الكون ستقودني » حتى وهو كذلك ، لم يخشَ مواجهة الحقائق ومدلولاتها . «هنا نوع من المعرفة جديد، قريب من عتبة الباب ، ينتظرنا ؛ ولا يجب أن ننفر من تفاهة الظواهر» . كثير من الاكتشافات الكبرى ، كالكهرباء ، نجم عن متابعة دلائل تافهة . أما فيما يخص قدرة العقل البشري . «ليس من العلمية في شيء بل من السخافة بمكان» أن نضع حداً لطاقاته الكامنة .

وقد أثار فضوله بشكل خاص ظاهرة إمالة الطاولات التي شهدها في بيته ووصفها بدقة وموضوعية ، كان هناك من النور ما يكفي كي يرى الأشخاص الأربعة عشر بوضوح ، وهو أيضاً طاولة تزن ٣٤ رطلاً انكليزياً ترتفع أربعة أقدام عن الأرض وتتحرك برفق فوق هامته «فكّر بالأهمية الممكنة لمثل هذه القدرات ، حبيسة عقولنا!» كتب . كانت زوجته مريضة إذ ذاك وقد ساءل نفسه عما إذا كان بالإمكان استخدام هذه القوى في الشفاء» . لسوء الحظ لم يواصل هذا الخط الاستقصائي أبداً رغم أنه نظر إلى البحث فيه على أنه «التزام أخلاقي» .

أما ماري سنكلير فقد كانت أجرأ وأكثر تحديداً في تخميناتها . إن كان الاستبصار حقيقة ، كتبت ، «فقد تتوفر لنا إذن سبل الوصول إلى كافة أشكال المعرفة . قد نكون بالفعل ينابيع ، أو منافذ تصريف لعقل كبير واحد .» إن كان التخاطر حقيقياً ، «لما كان إذن عقلي هو عقلي . . . أنا وعالم البشر واحد .» تخميناتها هذه تضعها في مصاف مجموعة من المشاهير . يونغ على سبيل المثال ، كان يعتقد أن عقولنا كانت تحوي «بذور الوعي المستقبلي» وردت إلينا من عقول أخرى وهي تنتظر أوانها كي تنمو وتتحول إلى تعبير واع . تيار دي شاردان رأى في المادة التي شكلت جسمه أنها «كليّانية الكون امتلكها أنا جزئياً» ، وتتماسك أجزاء الكون مع بعضها عن طريق ما رآه هو على أنه العامل الحاسم في التطور ـ الفكر .

إن فكرة كون الكائنات الحية كافة جزءاً من عضوية واعية وحيدة قديمة العهد . نقع عليها ، على سبيل المثال ، في حضارة بولينيزيا المعقدة التي حفظت على يد (الكاهونات) أو «حفظة الأسرار» ، ودونت للمرة الأولى على يد معلم أمريكي يدعى ماكس فريدوم لونغ . وفقاً لهذه العقيدة ، الانسان هو ثالوث من نفس دنيا ووسطى وعليا ، تتطابق الأولى والثانية مع عقولنا الواعية واللاواعية والثالثة مع ما يدعوه لونغ العقل الواعي الأسمى . بواسطة هذه الأوماكوا ، أو «الروح الأبوية الأقدم عهداً ، كلية الجدارة» ، يتحد جميع الأفراد .

لم يكن التخاطر والاستبصار من الغوامض بالنسبة للكاهونات . تماماً كما أن الأبدان ، سواء كانت حيّة أم لم تكن ، لها «أبدان طيفية» كذلك للافكار ، وحالما يتصل جسدان ببعضهما فإنهما يبقيان على اتصال كامن إلى الأزل . أما بالنسبة للشفاء ، فقد كانت الطرائق التي استعملها حفظة الأسرار متشابهة بشكل لافت للنظر مع طرائق مسمر . كانوا يعتقدون بنوع من المغنطيسية الحيوانية أطلقوا عليها مانا (القوة الحيوية) ، وفي مقدرة القائمين على الشفاء على تقنية هذه القوة من (الأوماكوا) إلى من هو بحاجة إليها من الأفراد . يرى لونغ أن هذه العقيدة ترجع إلى مصر قبل أيام موسى . قد تكون أقدم اعتقاد من نوعه في تاريخ الوجود .

أنا أغيّر عقله

بتاريخ ١٤ حزيران عام ١٩٥٥ ، كان لحّام اسمه جاك سوليفان يعمل لوحده في خندق عميق بالقرب من شارع واشنطن في بوسطن ، ماساتشوسش ، حينما غارت الأرض فوقه فجأة ودفنته حيّاً . صرخ طالباً النجدة ، لكن أحداً لم يكن على مقربة منه .

على مبعدة عدة أميال كان واحد من رفقائه في العمل ، تومي وايثيكر ، يلحم في موقع عمل آخر حينما طرأت له على نحو تلقائي فكرة ذهابه إلى شارع واشنطن ، لمجرد التأكد من أن كل شيء على ما يرام . لم يدر بخلده أن جاك كان هناك ، لقد شعر أنه يتعيّن عليه الذهاب وكفى ، وقد ألحّ عليه الشعور بشكل لم يتمكن معه من متابعة العمل فغادر مبكراً ، وهو يوضح لزميل له أن «هناك خطباً ما» .

وعند وصوله إلى شارع واشنطن ، وجد عربة النقل في الشركة في المكان ومولدها يدور ، إنما لا أثر لأحد بقربها . ثم استرعى انتباهه أن قسماً من الخندق المخصص لأنبوب الماء قد غار ، وإذ نظر عن كثب رأى يداً تشرئب من الأرض . بعد نصف ساعة أخرج جاك سوليفان حياً .

هذه القصة ، التي تختلف تقريباً عن كل ما هو مسجّل بهذا الخصوص ،

تناولها بالبحث الشامل عقب الحادثة بفترة وجيزة اثنان من علماء الباراسيكولوجيا المجربين : بيتي نيكول (همفري) ، إحدى الطالبات الأوائل التابعات لراين في جامعة ديوك ، وزوجها ج . فريزر نيكول ، إحصائي ومؤرخ جليل في البحوث النفسانية ، وقد سجّلا بعض التفاصيل الهامة .

قال لهما سوليفان إنه في اللحظة التي شعر أنه دفن ، تراءت له «صورة واضحة» لوايثيكر ومعها احتمال أن يكون وايثيكر قادراً على إنقاذه . حسبما رأى فإن بقاءه على قيد الحياة يرجع إلى التخاطر ، أو الصلاة ، أو كليهما ، لكنه لم يعتقد أن المصادفة المحضة هي التفسير المقبول .

أما فيما يخص وايثيكر ، فقد روى ، وهذا أمر لافت لغرابته ، أنه لم يشعر بأية إلحاحية تدعوه للتصرف العاجل حين استقبل دافعه . لقد كان أشبه بإيحاء لا ترتاح إليه يتملكك ، قال : «لقد شعر ببساطة أنه يتوجب عليه الذهاب إلى هناك» ، كتب آل نيكول في تقريرهما . «لم يدرِ لِمَ ، لكنه أدرك أنه لن يهدأ له بال حتى يذهب» . يبدو أن الرسالة قد اجتازت طريقها على نحو غير مباشر ، ومع ذلك فقد كانت من القوة بحيث دفعت وايثيكر إلى القيام بشيء ما كان ليفعله في الحالة العادية . وقد قاد هذا دون ريب إلى إنقاذ حياة .

كثير من اللغط الذي لا يزال يحيط بموضوع التخاطر ناجم عن عدم تمكننا إلى الآن من تحديد آلياته ، بعد أكثر من مئة سنة على ابتكار التسمية . حسناً ، اشتكى النقاد ، يمكنك مراكمة الشواهد المروية مجلداً فوق مجلد ، إنما لا يعطيك ذلك كبير قيمة مالم يقد إلى نظرية توضيحية وطريقة تبين التخاطر عن طريق التجربة المضبوطة القابلة الإعادة . لا يزال أمراً غير ملحوظ بوجه عام أن الاثنتين متوفرتان منذ فترة .

لقد تمّ اختبار الشروط التجريبية وتأكيدها تكراراً على يد دزينة بحاثة مستقلين باستعمال طريقة الغنزفيلد التي أتينا على ذكرها في الفصل الأخير . أما فيما يتعلق بالنظرية فقد نطق بها بشكل مفصل عام ١٩٦٢ أندريا بوهاريش ،

دكتور ، وطبيب أعصاب ، ومخترع وباحث مستقل كان يشتغل لوحده في التحقيق في الظواهر والناس غير العاديين . وقد تم تجاهلها على نطاق واسع منذئذ .

ذكرت مسبقاً أن التخاطر ، كالتنويم المغناطيسي ، يستدعي حالة عقلية على درجة كبيرة من الدقة لدى كل من الطرفين المعنيين . كان بوهاريش أول من وصف هاتين الحالتين على أنهما التنبه الادرينالي والتنبه الكوليني ، وأجرى تجارب مخبرية تهدف إلى اختبار نظريته واستحداث التخاطر في ظل شروط مضبوطة . يعتبر عمله تكملة هامة لعمل بحاثة الغنزفيلد وقد فات موعد إعادة تقويمه منذ زمن .

تشترك روايات كثيرة عن التخاطر في سمة واحدة : مرسل الرسالة يكون عند ذاك في حالة تأزم ، بينما يميل المستقبل إلى الإسترخاء لا يفعل شيئاً محدداً ، أو نائماً . التنبه الادرينالي هو التسمية التي يطلقها بوهاريش على الحالة الأولى ، التي يتم فيها تنشيط الجهاز العصبي الودي نحو اتخاذ دور مهيمن، في حين أن حالة التنبه الكوليني هي هيمنة جهازنا العصبي الآخر ، نظير الودي .

يشكل هذان الجهازان معاً ما يعرف بالجهاز العصبي اللاإرادي ، الذي يتولى أمر أفعالنا اللاإرادية مثل نبضات القلب ، تدفق الدم والهضم . كما هي الحال مع أدمغتنا وعقولنا ، فإنه عندما تزودنا الطبيعة بإثنين من أي شيء ، يمكننا أن نتوقع أن لهما وظائف مكملة لكنها متباينة جداً .

عندما «يصلنا إفراز الأدرينالين» ، تتقلد المسؤولية أجهزتنا العصبية الودية ، مسرّعة نبضات قلوبنا ، مضيّقة أوعيتنا الدموية ، موسعة حدقات عيوننا وبصورة عامة عاملة على تأهبنا توصلاً إلى حالة الإستثارة التي تتجلى في الإستعداد للفعل . تفرز كلانا (ج . كلية) مادة تدعى إبينفرين ، وتعرف عادة بالإدرينالين ، لأنها تأتي من الغدتين الكظريتين ، ومنه الكلمة التنبه الإدرينالي . وهذه تصف الحالة التي نكون عليها وقت الشدة ، الهلع ، الخطر الكبير أو توقع الموت القريب .

أما حالة التنبه الكوليني فهي عكسها تماماً . إذ ينبهه مركب يدعى اسيتيل كولين يعمل جهازنا العصبي نظير الودي على تهدئتنا حين يكون في موقع المسؤولية ، عن طريق إبطاء نبضات القلب ، خفض ضغط الدم ، تضييق حدقة العين والمساعدة في تسهيل عملية الهضم .

التنبه الإدرينالي ، إذن ، هو حالة التأزم عند المرسل التخاطري ، والتنبه الكوليني هو حالة الإسترخاء عند المستقبل .

من الواضح أن هناك درجات لكل حالة . لم تكن حياة أبتون سنكلير على درجة من الخطورة بينما كان يبعث بالصور إلى زوجته في الغرفة المجاورة . كما لم تكن كذلك حياة كارل سارجنت أثناء تجربة الغنزفيلد . لكن الإثنين كليهما كانا يركزان على مهمتيهما، وعلى درجة من التنبه أكثر نشاطاً، وهما عازمان على إرسال رسالة . في كلتا الحالتين كان المستقبل مسترخياً، في حالة تشغيل العقل الأيمن ، وفي نيته أن يستقبل . لم يكن المرسل والمستقبل في حالة عقلية مغايرة فحسب ، كما بين بوهاريش ، بل كذلك في حالة فيزيولوجية مغايرة .

هذه هي أول خطوة نحو تنفيذ لغز التخاطر . فهو يحدث فقط حين يكون الطرفان المعنيان في الحالة المناسبة . وهذا يوضح سبب عدم حدوثه أكثر مما يحدث .

يورد بوهاريش قضية بوسطن التي أوجزتها أعلاه دعماً لنموذجه . كان واضحاً أنَّ سوليفان هو المرسل في هذه الحالة، يقول : لقد كان تحت وطأة شدة فائقة ، يواجه الإحتمال القوي في أنه كان مشرفاً على الموت. لذلك فقد كانت عنده حالة «تنبه أدرينالي قوية» .

وايثيكر ، من الناحية الأخرى ، كان في الحالة المناسبة تماماً من التنبه الكوليني كوّن معها مستقبلاً تخاطرياً جيداً . صحيح أنه لم يكن نائماً أو مستريحاً وقتذاك . في الواقع ، مثله مثل رفيقه ، كان يلحم ، وكما أخبر آل نيكول ، «كافة أنواع الأشياء غير الملائمة تدور في خلدك ، وأنت بالكاد تدري أنك تعمل» وأنت تفعل هذا .

كان عقله الأيسر يركز على عمله ، وبذلك لم يكن يتفاعل كثيراً مع عقله الأيمن ، الذي كان منفتحاً بدوره لإلتقاط الرسالة . لا ينبغي عليك الإستلقاء على ظهرك في جو غنزفيلدي كي تكون مستقبلاً تخاطرياً . كل ما أنت بحاجة إليه هو أن يشغلك عمل روتيني لا يتطلب منك التفكير فيما أنت فاعله . العمل الجسدي الروتيني ، يلاحظ بوهاريش ، يمكن أن يكون مثالياً للإستقبال التخاطري ، ولا سيما إذا كان اليوم حاراً والعمل روتينياً ، كما في هذه المناسبة .

رويت حادثة غير مختلفة عن قصة اللحامين البوسطونيين من قبل أبتون سنكلير ، وقد أطلعه عليها قائد الفرقة الموسيقية المشهور برونو والتر . وقع الموسيقي المذكور بصورة فجائية مريضاً أثناء رحلة له ، استدعى مضيفه على أثر ذلك سيارة تاكسي له . لم تصل السيارة ، مما دعا والتر إلى مغادرة المنزل بحثاً عن أخرى بنفسه . في الشارع وقع بصره فجأة على مديره وهو يركب سيارة فلوّح له ، قائلاً يا لها من مصادفة أن يكون ماراً من هنا . بل هي ليست مصادفة ، قال المدير : قبل نصف ساعة كان داخله «شعور قوي» أن والتر كان في ضيق ، ورغم أنه لم يكن يعلم شيئاً عن مكان وجوده ، فإنه قد استقلّ سيارته وقادها بحثاً عنه ، يقوده دافع آخر ـ وهو «القيادة في اتجاه محدد» .

بعد جمع أمثلة عدة عن المبادلات التخاطرية بين المرسلين الأدريناليين والمستقبلين الكولينيين ، من مصادرها المباشرة اتخذ بوهاريش الخطوة المنطقية في محاولة خلق كلتا الحالتين اصطناعياً والتأكد من أنهما يعملان على تقوية التخاطر في مخبره .

لم يكن هناك كبير صعوبة في جعل الشخص موضع التجربة كولينياً . أعطى بوهاريش ببساطة أحد زملائه ، هاري ستون ، جرعة من «الفطر المقدس» آمانيتا موسكاريا . ثم أدار تجربة مطابقة صور على منوال تجارب سنكلير ، ووجد أنها وصلت إلى ستين على خير ما يرام ، وهذا ما كان ليفعله مصادفة مرة في المليون عند إجراء تجارب مماثلة . أعاد بوهاريش التجربة مع أربعة من الصحفيين

كأشخاص تحت التجربة ، واختيرت الأرقام عشوائياً بواسطة حاسوب مبرمج خصيصاً لتكون أهدافاً ، بدلاً من صور . وقد حذف هذا «اثر المجرب» ، إذ لم يعلم أحد ماذا كانت الأرقام إلى أن قدّم المجرّب عليهم تخميناتهم .

قبل مضغ الفطر ، سجل المجرب عليهم ما يقارب مستوى المصادفة بالضبط . بعد ٤٥ دقيقة من تناولهم فطرهم المقدس ارتفعت نقاطهم المسجلة إلى مستوى ٢١٤ مقابل ١ من مستوى المصادفة ، وهذا ذو دلالة كبيرة . بعد ساعتين ، حينما زالت آثار الفطر ، ارتدت النقاط المسجلة إلى مستوى المصادفة . (أنصح القرّاء بقوه ألا يتناولون الفطور المضحكة ، وأسارع إلى القول إن بوهاريش توصل إلى نتائج طيبة فيما بعد باستعماله مولد أيونات سلبية لاستجرار التنبه الكوليني) .

لم يكن استجرار التنبه الأدرينالي بمثل هذه السهولة ، لأسباب واضحة . لا يمكنك حمل المجرّب عليهم في المخبر على الدخول في شروط تأزم حقيقية وليس من المرجح أن تكون الإصطناعية كالحقيقية . ومع ذلك ، فقد كان بوهاريش محظوظاً . أحد أشخاصه المجرّب عليهم بشكل دوري ، بيتر هوركوس ، كان يخاف الكهرباء بشكل غير عادي . لذلك أقام تجربة طلب إلى هوركوس فيها أن يجلس على صفيحة معدنية فيها ١٠,٠٠٠ فولت تيار مباشر . كان بوهاريش يعلم أن الصفيحة لم تكن مؤذية ، لكن هوركوس لم يكن يعلم ذلك . «أمكنني رؤية هواجس القبر مرتسمة على وجهه حينما بدأت التجربة» ، كتب بوهاريش :

كانت النتائج رائعة . بينما كان هوركوس ، الذي يمثل المرسل ، في هذه الحالة من التنبه الأدرينالي المستجرة اصطناعياً سجل المجرّب عليه عنده أكثر من مثلي التخمينات الصحيحة التي سجلها عندما عاد هوركوس إلى حالته الطبيعية . بعد إدارة التجربة سبع مرات أخرى والتوصل إلى نتائج مماثلة ، اعتبر بوهاريش أنه قد برهن على نقطة : يمكن استجرار التنبه الأدرينالي بدون أذية ، وقد حسّن ذلك أداء المرسل التخاطري تماماً كما حسّن التنبه الكوليني المستجر أداء المستقبل .

ما فتئت استخدام كلمتي مرسل ومستقبل في وصفي لمن هم على طرفي العملية التخاطرية ، لكن حسب اعتقادي كان بوهاريش أول من نوّه ؛ التسميتان مضللتان . إن عملية «الإرسال» التخاطري ليست عملية نابذة مثل بث الموجات اللاسلكية . إنها حالة من التركيز نفسانية ومعاكسة في الأساس ـ جاذبة .

«لايبعث المرسل بأي شيء» يقول : «بل هو بالأحرى مركز جذب يجذب إليه انتباه المستقبل . يبدو كما لو أن المرسل يخلق فراغاً عقلياً ينجذب إليه عقل المستقبل . يجهّز المرسل عن طريق حاجته وعقله مسرحاً عقلياً ؛ يعمّر المستقبل بدوره المسرح برموزه وصوره .

محاولات كثيرة جرت منذ العشرينيات لتعليل التخاطر بلغة الموجات اللاسلكية أو الكهرومغناطيسية ، لكنها لم تفد كلها شيئاً ، مع ذلك هناك في الطبيعة قوة تعمل عبر مسافات طويلة وهي وثيقة الصلة بموضوع التخاطر ، مألوفة جداً لدينا : الجاذبية .

تعمل الجاذبية فقط عندما تكون هنالك كتلتان ؛ مثل وجود كوكب وتفاحة ، وهنا تعترضنا مشكلة . ليس للعقل كتلة ، بقدر ما نعلم ، لذلك كيف يتأتى له أن يجذب أي شيء ؟ لست بقادر على التعليل ، وليس غيري بقادر ، كما ليس بوسعي سوى الإشارة إلى أنه يفعل . أو ، على الأقل ، يبدو عليه من عمله أنه يفعل ، وفكرة أن التخاطر هو جاذبية عقلية أكثر مما هو لاسلكي عقلي يجعل سلوكه أقل غموضاً بشكل طفيف .

يقول لنا المنطق العام إنه إذا أرسل جاك سوليفان ، وهو مدفون في خندقه ، رسالة استغاثة إلى صديقه تومي في الطرف الآخر من بوسطن ، لا بد أن نوعاً من المعلومات قد عبر الأثير بسرعة ، أو جزيئات الهواء ، بينهما ، إن أبسط مشابهة يبدو أنها تتمثل في البث والإستقبال اللاسلكي . كان كل ما في الأمر أن عقل تومي مولّف على التردد المناسب في الوقت المناسب . أمر بسيط .

وكذا خطأ . ليس التخاطر أي نوع من الإشعاع الكهرومغنطيسي . لو كان

كذلك لما وجدنا مشقة في كشف موجاته . ولسوف يتناقص مع ازدياد المسافة حسب قانون التربيع العكسي ، وهذا ما لا يحدث . فهو لن يتخطى أقفاص «فارادي» المعدنية الحاجبة التي توقف كافة الإشعاعات المعروفة في الطيف الكهرومغناطيسي بإستثناء الموجات الطويلة جداً ، وهناك الكثير من الأسباب التي تذكر في معرض عدم انتقال الإشارات التخاطرية عن طريق الموجات الطويلة جداً . إن فكرة التخاطر كلاسلكي عقلي كانت ستبدو أكثر معقولية منذ خمسين عاماً ، لكنها اليوم لن تكون كذلك ببساطة . (هذا لا يلغي أية امكانية لوجود سطوح بينيّة بين الطيف الكهرومغناطيسي وقوة psi ، عن طريق مثل هذه المفاهيم الغريبة كالسوليتونات والموجات اللاموجهة . فهي تستبعد التخاطر فقط كجزء من الطيف الكهرومغناطيسي كما يفهم حالياً) .

بالعودة إلى فكرة الجاذبية العقلية ، تعترضنا مشكلة أخرى . ما هو حتى أكثر غموضاً من حقيقة أن الرسالة التخاطرية تصل بشكل أو بآخر من آ إلى ب هو حقيقة أن ب تصل إليها الرسالة وليس ج ،د أو بقية العالم . التخاطر انتقائي ، الجاذبية لا .

إن كان جاك سوليفان يبث إشارة «النجدة» في جميع أنحاء بوسطن فكيف تأتى لتومي وحده فقط أن يلتقطها ؟ لماذا لم تهرع زوجة جاك وأولاده إلى نجدته ؟ لقد فكر بهم أثناء محنته ، قال : لكن ليس من الواضح أن أحداً منهم استقبل أفكاره . ربما كانوا يتناولون الشاي معاً ، يدردشون ويركزون بشكل تام على ما كان أمامهم ، نوافذ عقولهم اليمنى مغلقة تماماً ؟ تومي ، من الناحية الأخرى ، كانت نوافذه مفتوحة . كان يقوم بعمل جسدي روتيني ، وكما قال هو نفسه ، «كافة الأشياء غير الملائمة» كانت تتفتق في ذهنه بينما كان يلحم . في هذه المناسبة ، تفتق كذلك ذهنه عن شيء ملائم . لماذا تفتق ذهنه عنه وليس ذهن غيره ؟

لا بد أنه كان هناك المئات من البوسطونيين الآخرين في تلك اللحظة في

حالة يمين ـ عقلية أو كولينية ، جالسين في شرفاتهم أو مستغرقين في تفكيرهم في أوقات ازدحام السير وهم في طريقهم إلى البيت . ما الذي دعا تومي إلى استقبال نداء استغاثة جاك ؟

يبدو لي أنه توفر له مؤهلان واضحان . أحدهما أنه كان في حالة كولينية ، والآخر، أنّه كان على معرفة بجاك سوليفان. إن الغالبية العظمى لكل حالات التخاطر المفيد التي رويت بشكل موثوق تحدث إما بين أفراد العائلة نفسها أو أناس يعرفون بعضهم جيداً ، سواء انطوى الأمر على أية روابط عاطفية وثقى أم لا ، وهذا ما لم تكن عليه الحال إما بين جاك وتومي أو برونو والتر ومديره على ما يبدو .

ليس التخاطر مفيداً على الدوام . فهو يصل في تفاهته إلى حد كونه عقيماً . في الواقع ، يرد في طيف من رسائل منقذة للحياة كتلك التي أتيت على ذكرها في طرف وحوادث منزلية لا يعتد بها في طرف آخر . إليكم بعض أمثلة التخاطر العقيم في شكله الفاعل :

عام ١٨٧٢ ، زار أحد الأطباء الفرنسيين الشباب ويدعى شارل ريشيه (١٨٥٠ ـ ١٩٣٥) وهو في عمله زميل أمريكي ، وكان قد صمّم على أن يقدم له برهاناً توضيحياً على مهارته في التنويم المغناطيسي . وقد استخدم هذا في مساعدة المرضى للخلود إلى النوم ، وكان الشخص المدروس فتاة حساسة بشكل خاص عمرها تسع عشرة سنة وتدعى مارييت . وقد أدخلها حسب الأصول في غيبوبة عميقة ومن ثمَّ ، حسب تعبيره :

«دخلت رأسي فكرة غريبة . كنت قرأت ما كتبه قدماء المغناطيسيين عن الرؤية الثانية ، أو الاستنارة العقلية . على أثر ذلك سألت مارييت عن اسم الشاب الذي كان معي .» «كيف لي أن أعرف اسمه ؟ سألت مارييت ، وهي تضحك . تابع ريشيه ضغطه بتجربته العفوية . «ما دمت لاتستطيعين أن تقولي اسمه .» قال : «حاولي أن تقرئيه . هيا انظري !»

تلت فترة صمت من ثلاثين ثانية ، كانت عينا مارييت خلالها مغمضتين

بإحكام . ثم قالت : «هناك خمسة حروف . الأول إتش ، الثاني إي ، لا يمكنني تبين الثالث .» وقد سمت الآخرين على أنهما (ر) و(ن) . كان اسم الزائر الأمريكي هيرن (الاسم الأنكليزي من خمسة أحرف ـ المترجم) .

كان هذا مثالاً على التخاطر العقيم كلية . لم تدعُ الحاجة ماربيت لأن تعرف اسم الأمريكي لو كانت هناك حاجة ، لما كان عليها سوى أن تسأل . هذا يذكرني بعديد الروايات عن أناس هتف لهم أحد ما كانوا هم أنفسهم على وشك الاتصال به . كل ما يفعله التخاطر في هذه الحالات ـ بافتراض أن هنالك تخاطر ـ هو تمرير رسالة قبل بضع ثوان من وصولها إلى المستقبل بشكل ما .

ذات صباح عام ١٨٧٨ ـ كان ريشيه يرتدي ملابسه عندما أفاقت زوجته باكية . كانت قد «رأت» لتوها جدّه ، قالت : كان مريضاً جداً ، وكانت والدة ريشيه منكبة فوقه . لم يعر ريشيه الأمر كبير اهتمام . كان رأى جده كذلك ـ بلحمه وشحمه ـ قبل بضعة أيام . كان الشيخ في صحة ممتازة ، وكان آل ريشيه على وشك الذهاب وقضاء بضعة أيام معه . «في ذلك الوقت» ـ كتب ريشيه لاحقاً ، «لم أكن أؤمن بالأحلام الحقيقية .» وقد فعل الساعة العاشرة ذلك الصباح ، رغم ذلك ، حينما وصلت برقية تعلن عن وفاة والده فجأة . وقد حدد وقت الوفاة لاحقاً حوالي الساعة ٥ صباحاً ، قبل ساعتين من حلم السيدة ريشيه . علم ريشيه أن أمه كانت فعلاً بجانب السرير لمدة ساعتين قبل أن حمّ القضاء .

وهنا مرة أخرى ، لم يكن التخاطر مفيداً بشكل خاص ، بالرغم من وجود نقطتين هامتين في هذه الحالة ، التي هي نموذج لآلاف غيرها بالمعنى الحرفي للكلمة . (كان في ملف جمعية البحوث النفسانية ما يربو على الألف ، وقد أحصى الفلكي فلاماريون منها شخصياً ١٨٢٤) وقد شهدها جيداً ، شخص حاز لاحقاً على جائزة نوبل ، الأمر الذي يوحي أنه كان قادراً على رواية حادثة منزلية بسيطة بصدق ودقة . وقد انطوت على انزياح في كل من الزمان والمكان ، حيث أنه عندما استلمت السيدة ريشيه الرسالة ، كان الشيخ قد فارق الحياة .

نقطة مثيرة أخرى هي أنه السيدة ريشيه تلقت الانطباع المتضمن أن الجد كان مريضاً ، إنما لم يزل حياً . يبدو أنه قد أرسل رسالة «الاستغاثة» حينما شعر بدنو أجله ، وبقيت الرسالة هاجعة في عقل السيدة ريشيه كإحدى «بذور الوعي» عند يونغ ، إلى أن دخلت مرحلة طرد النوم ، الانتقال بين النوم واليقظة ، ثم هنالك هذا التفصيل اللافت عن والدة ريشيه وانتحابها فوق السرير ، والذي يبدو لي على درجة من الأهمية ، خاصة فيما يتعلق بنظرية بوهاريش. هذا تفصيل لم تكن السيدة ريشيه بحاجة لمعرفته اطلاقاً ، وهو يوحي أن بعضاً من وعيها قد انجذب إلى المكان بشكل أمكنها مراقبته بصورة مباشرة ، على أن يكون الأمر رسالة أرسلت من على فراش الموت .

لهاتين الحالتين «العقيمتين» سمة مشتركة واضحة : كلا المستقبلين كانا في حالة كولينية . كانت مارييت منومة مغناطيسياً ، السيدة ريشيه كانت نائمة . كان المرسل في الحالة الثانية على وجه الاحتمال في حالة تنبه ادرينالي ، حيث أنه كان مشرفاً على الموت ، لكن لم يكن الأمر كذلك في الحالة الأولى ، بالتأكيد ؟ لا يمكننا الاعتقاد بأن السيد هيرن كان يحاول بإلحاح إيصال اسمه إلى مارييت .

أنا موقن أنه لم يكن ، لكنه لم يكن المرسل . جاءت الرسالة من ريشيه ، وليس منه ، ولا بد أن ريشيه كان يبذل بعض الجهد في محاولته عرض مهاراته في التنويم ، لذا من الجائز أن هذا وضعه في حالة تنبه أدرينالي متوسطة . يبدو هذا كافياً . لقد ضللتني فكرة مواجهة مارييت صعوبة في «رؤية» الحرف الثالث من اسم هيرن . أمن الجائز أن ريشيه لم يكن متأكداً من تهجئته بنفسه ؟

واظب ريشيه على اهتمامه بالتنويم المغناطيسي ، التخاطر والظواهر «الميتانفسية» الأخرى ، كما دعاها ، خلال كامل حياته المديدة والنشطة . إلى جانب زميله بيير جانيه أحد رواد علم النفس الحديث (بالمناسبة كان هو الذي ابتكر كلمة اللاواعي ١٨٨٩) أجرى عدة تجارب غير عادية مع سيدة تدعى ليوني ب ، والتي كانت من أكثر المدروسين في زمانها دراسة كاملة .

كانت لها الخاصية التي تدعى «الاستبصار المتنقل» أو «الرؤية من بعد» وهذا مشابه للتخاطر باستثناءأنه لا يتوجب وجود مرسل واعٍ للمعلومات . ينطلق المستقبل ببساطة إلى هناك ويلتقطها وهو يرقد في حالة تفكك عقلي .

ذات يوم ، نوّم جانيه ليوني وحملها «على السفر» إلى مخبر ريشيه ، حيث أعلنت على إثر ذلك أنه كان يحترق ، وكان بالفعل آنئذ . في مناسبة أخرى ، أثناء جلسة تنويم مغناطيسية مجدبة من ناحية أخرى ، اتفق أن ذكر ريشيه اسم مساعده في المخبر . قالت ليوني على الفور إنه قد أحرق نفسه للتو وهو يصبّ على نحو مهمل سائلاً أحمر من قارورة وجد ريشيه لاحقاً أن الرّجل كان يصبّ البّرومين ـ وهو سائل أحمر كاوٍ جداً ـ وقد أسقط بعضاً منه على ذراعه ، محدثاً تقرحاً كبيراً أحمر .

انطوت أكثر تجارب ريشيه جرأة على مزج التنويم المغناطيسي مع الاستبصار المتنقل بشكل أمكنه أن يتدخل في سلوك المرأة تحت التجربة ، دون معرفتها ومن بعد . هذا يدخل سمة جديدة كلية في المناقشة حول التخاطر : احتمال ألا يقتصر الأمر على تبادل المعلومات من بعد بوسائل غير عادية ، بل إمكانية بث الأوامر وتنفيذها دون أن يعرف المستقبل أي شيء عنها . إن مضامين هذا الاكتشاف مقلقة جداً بشكل ليس من المستغرب أن يكون هناك اتجاه إلى الزعم بعدم وجود الدليل . ومع ذلك فالدليل موجود ، وكثيره من علماء لهم سمعتهم الدولية مثل جانيه ، ريشيه ، وواحد أو اثنين آخرين سنتعرض لهما عما قريب .

في إحدى التجارب الموسّعة التي شهدها ثمانية من الشهود ، نوّمت ليوني من بعد وتمّ توجيهها عبر الهافر عن طريق نوع من تحكم تخاطري عن بعد ، بعد أن تعقبها اثنان من البحاثة ضماناً لسلامتها . في مناسبة أخرى ، أجرى ريشيه إحدى تجاربه العفوية (وهي الأكثر نجاحاً في الأغلب) لصالح زملائه الأطباء أثناء تناولهم وجبة طعام ، قائلاً لهم إن باستطاعته أن يجعل أحد مرضاه يدخل في غيبوبة ويسير في نومه رأساً إلى غرفة الطعام . قام بإرسال تعليماته العقلية كما يجب ، ولكن

عندما لم يحدث شيء لمدة خمس عشرة دقيقة شطبت التجربة باعتبارها أخفقت ، ثم دخل أحدهم غرفة الطعام وهو يقول إن مريضة تنتظر خارجاً في الرواق تبحث عن د . ريشيه . وقد بدا عليها أنها مستغرقة في نوم عميق .

رأينا من قبل أن التخاطر والتنويم المغناطيسي لهما سمة وحيدة مشتركة على الأقل : حالة التنبه الكوليني . وهذه يتم استجرارها تلقائياً في الشخص الخاضع للتنويم ، وهي الحالة التي يجب أن يكون عليها المستقبل التخاطري إذا أريد للرسالة أن تصل ، سواء حدث ذلك بصورة طبيعية أو استجّر عن عمد .

والآن علينا مواجهة احتمال وجود عامل ثالث ، وهو الحركة (التفجر) النفسانية (بسايكو كينيسيس) ، له علاقة بعملية الانتقال التخاطري تحت التنويم المغناطيسي . قد يبدو هذا للبعض ادعاءً محرّضاً ومرعباً لذا أسارع إلى التنصّل من مسؤولية كوني أول من أدلى به .

يعود هذا الشرف إلى د . روبرت آ . مكونيل ، عالم فيزيائي في جامعة بيتسبرغ ورئيس سابق للرابطة الباراسيكولوجية . عام ١٩٧٩ كتب مقالاً تحت هذا العنوان غير المساوم «التنويم المغناطيسي كتفجر نفساني» ، وحينما رفضت المقال ست من مجلات علم النفس والباراسيكولوجيا ، قام بنشره عام ١٩٨٣ بنفسه . قبل أن ندينه كليه على أنه هراء فاضح ، يجب أن نتذكر أنه لو كان هناك أي تعليل بسيط لأي من الظواهر العقلية التي أتناولها هنا بالمناقشة ، لكان الآن بحوزتنا . لكن لا يتوفر لدينا ، وحينما تتوفر التعليلات لمن المؤكد أنها ستبدو فاضحة بلغة ما كان مفهوماً ومقبولاً بوجه عام عام ١٩٨٣ . لذلك عوضاً أن نتخلص من ادعاء مكونيل ، دعنا ننظر إلى الدليل الذي أقامه عليه .

يردنا هذا الدليل من الاتحاد السوفياتي ، وعلى الرغم من إيجازه في أحيان كثيرة من قبل ، على نحو مثير نوعاً ما عادة ، سأفعل ذلك ثانية مع عدم التأكيد على ما فعله البحاثة السوفييت الأوائل ، أو ادعوا أنهم فعلوه ، بل على ما قالوا .

لم يكن من بدأ ذلك كله عالم ، إنما مؤدياً في السيرك يدعى فلاديمير

ديوروف. باعتباره أحد أكثر الممثلين الترفيهيين شعبية في روسيا ما قبل الثورة، فقد سحر الحضور بحيواناته المدربة بدقة ، وخاصة كلابه ، وعلى الرغم من إفادته من الوسائل المعينة الميكانيكية ، مثل الصافرات فوق الصوتية ، فإنه اقتنع بالتدريج أنه قد نمّى اتصالاً عقلياً مباشراً مع كلابه ، وخاصة أحد كلاب صيد الثعالب ويدعى بيكي . إليكم وصفه لواحدة من أولى تجاربه :

«هب أن لدينا المهمة التالية : اقتراح أن يذهب الكلب إلى إحدى الطاولات ويأتينا بكتاب منها ـ ـ ـ أتناول رأسه بين يدي ، كما لو كنت أغرس في ذهنه بصورة رمزية فكرة كونه تحت سلطتي كلية ـ ـ ـ أثبّت بصري على عينيه ـ ـ ـ»

وإذ يدخل بيكي في ما يبدو أنه غيبوبة مسمرية ، يتصور ديوروف عندها بشكل دقيق ما يريد من الكلب أن يفعل ، ثم :

«أدخل في روعه ما أدخلته في روعي للتو . أضع أمامه عقلياً ذلك الجزء من الأرض الذي يؤدي إلى الطاولة ، ومن ثمّ رجل الطاولة ثم غطاء الطاولة وأخيراً الكتاب .» ما عليه عندئذ سوى أن يصدر أمراً عقلياً ليقفز بيكي مبتدئاً عمله ومنفّذاً المهمة كآلة أوتوماتيكية .

استرعى عمل ديوروف انتباه أحد الأكاديميين فلاديمير م . بختيريف ، وهو طبيب أعصاب بارز أصبح أول رئيس لمعهد بحوث الدماغ لضخم في لينينغراد (الآن ترأسه حفيدته ناتاليا بختيريفا) . هنا ، انشأ عام ١٩٢٢ لجنة خاصة لدراسة الإيحاء العقلي، إذ أنه بحدود ذلك الوقت لم يكن «يساور شك فيما يتعلق بحقيقة تخاطر» كما كتب أحد تلامذته لاحقاً .

وقد أقنعته التجارب التي جرت في بيته مع ديوروف وبيكي أنه كان من [illegible]كن التأثير في أفعال الكلب بطريقة «إيحاء الفكرة» وقد وجد في النهاية أن [illegible]ه أن يقوم بذلك بنفسه مع كل من بيكي وكلبه الخاص ، غابيش . وقد أخذ [illegible]ه التجارب على محمل الجد بشكل أرسل معه ثلاثة من زملائه لزيارة ديوروف وإعادة التجارب بشكل مستقل ، وهذا ما فعلوه بنجاح .

أجرى بختيريف كذلك مئات التجارب في انتقال الصور على نحو يشابه تجارب آل سنكلير ، وقد وجد أن مستقبلاً تخاطرياً جيداً يمكنه أن يلتقط ليس الصورة أو الشيء الهدف فحسب ، بل كذلك بعض الأفكار المرتبطة به من قبل المرسل . عند وضع كتلة زجاج مشروخ كهدف ، على سبيل المثال ، وصفت إحدى المستقبلات انطباعاتها على أنها «انعكاسات في ماء - قمع سكر مخروطي - قمة ثلجية - جبل جليدي ، طوف جليدي في الشمال أضاءته الشمس - تكسّر للأشعة» . ليس هذا بالوصف الدقيق جداً لكتلة من زجاج ، لكنه يصف بالفعل انطباعات يتوقع أن تطرأ على عقل المرسل وهو ينظر إليها .

في مناسبة أخرى ، حينما كان المرسل يحاول أن ينقل صورة لوحة مؤطرة ، لاحظ انعكاساً في زجاجها من مصباح ضوئي كان يشابه الحرف N (وهو H بالكتابة السيريلية[1]) . وقد جعله هذا يفكر ، لغير ما سبب ظاهر بنا بوليون ، رغم أن اللوحة كانت صورة امرأة .

«نابليون ، التمع الحرف N هنا فجأة» علّق قائلاً إلى مساعده . بعد بضع دقائق قال الشخص موضع التجربة (في غرفة أخرى) : «أرى إما نابليون أو فيسباسيان .[2]» أخطأ الشخص موضع التجربة الهدف كلية ، لكنه التقط فكرة من عقل المرسل (مضيفاً إمبراطوراً آخر كحسن تدبير) تماماً كما فعلت أنا عندما فكّر كارل سارجنت بالقمر وهو ينظر إلى منظر طبيعي إيطالي . هذه التفاصيل في العمل السوفييتي هي ما أجده مقنعاً بشكل خاص .

لم يمض وقت طويل حتى خطا السوفييت خطوة أبعد . في مؤتمر علم الدراسات العصبية النفسية لعموم روسيا الذي انعقد عام ١٩٢٤ ، قدّم عياني عن التخاطر على الملأ أمام حضور من العلماء المتخصصين . كان الشارح د .

---

(١) ذات علاقة بأبجدية سلافية قديمة يقال ، يخترعها القديس سيريل ولا تزال أشكالها الحديثة تستعمل في بلغاريا وروسيا (المترجم) .

(٢) فيسباسيان : امبرطور روماني (٦٩ - ٧٩ م) أعاد للأمبراطورية استقرارها . (المترجم)

كونستانتين بلاتونوف ، وكان تلميذاً لبختريف وأصبح فيما بعد عالم نفس تجريبي بارزاً وأستاذاً في جامعة كراكوف . لحسن الحظ يتوفر لدينا وصفه لما حدث .

لم يكن في نية بلاتونوف أن يشرح التخاطر على الملأ في ذلك الملتقى ، لكنه وهو في طريقه إلى هناك التقى إحدى مريضاته وكان يعرف استجابتها العالية للتنويم المغناطيسي . وعلى الفور دعاها إلى اصطحابه ، دون أن يطلعها على ما كان يدور في خلده . وقد كانت هذه تجربة عفوية ، ومرة ثانية تجنح هذه التجارب إلى أن تصيب نجاحاً أكبر من تلك التي أعدت بعناية . وقد أصابت تجربة بلاتونوف بالتأكيد نجاحاً .

أخبر الحضور أنهم سيريهم أن بالإمكان تنويم شخص بطريقة الأمر العقلي . عندما يغطي وجهه بيديه ، قال : يكون ذلك إيذاناً ببدء التجربة . أحضرت الآنسة ميخاييلوفا ، وهي الشخص المجرّب عليه ، وأجلست إلى طاولة على المسرح ، في الوقت الذي وقف فيه بلاتونوف وراء سبورة بشكل لم يكن باستطاعتها رؤية وجهه . ثم ، حسب كلامه ، في رسالة إلى زمن له بقي لحسن الحظ على قيد الحياة :

«بعد أن غطيت وجهي ، كونت صورة عقلية عن المرأة موضوع التجربة م . وقد استسلمت للرقاد وهي تتحدث إلى البروفيسور ج . وقد قمت بتركيز انتباهي الشديد على ذلك لمدة تقارب الدقيقة . كانت النتيجة تامة : خلدت م . للنوم في غضون بضع ثوان . وتمّ الإيقاظ بنفس الطريقة . وقد تكرر هذا عدة مرات .»

فيما بعد ـ سألت ميخاييلوفا بلاتونوف لماذا دعاها إلى المؤتمر . «لا أفهم ،» قالت : «ماذا حدث ؟» لقد غفوت ، إنما لست أعلم لِمَ ـ أنت لم تجعلني أستسلم للرقاد .» وقد فعل رغم ذلك، وفعل ذلك مرة وثالثة في مخبر بختيريف مؤكداً بذلك التقارير الواردة من فرنسا والتي تعود على الأقل إلى عام ١٨٦٩ عن نوع التجارب التي ذكرت سابقاً والتي تخص جانيه وجيبير. وقد تكرر عمل بلاتونوف بدوره على

يد متخرج من معهد بحوث الدماغ ، د . كونستانتين كوتكوف . بمساعدة زميلين له أجرى ما سمّاه «قطعة عمل صغيرة لكنها ممتعة في انتقال الفكرة من بعد» . كانت بالفعل ممتعة .

كان الشخص المدروس فتاة في سن المراهقة أمكنهم إنامتها مراراً ومن ثمّ إيقاظها ثانية عن طريق أوامر غير كلامية . (بكلمة نوم ، أعتقد أنهم قصدوا غيبوبة عميقة ، أو نوم العقل الأيسر .) في إحدى المرات أخذتها سنة من نوم وهي واقفة تنظر إلى أنبوب اختبار . حينما أفاقت ، تابعت نظرها إلى الأنبوب ، دون أن تعي أنها نوّمت مغناطيسياً ، كما هي الحال مع أشخاص تحت التجربة دخلوا غيبوبة عميقة . في الواقع ، لم تعلم قط ما كان يجري ، ولم تنفك عن السؤال عن موعد بدء التجارب التي أخبروها بها .

«من بداية التجربة إلى نهايتها» كتب كوتكوف ، «لم تعلم فيما إذا أجريت أية تجارب معها ، أو نوعية تلك التجارب .» كان هناك ما مجموعه ثلاثون من هذه التجارب ، ولم تصادف «واحدة منها الفشل» . كانت أكثرها متعة تلك التي أعطيت فيها أوامر من بعد تطلب إليها المجيء إلى المختبر في وقت محدد ، الأمر الذي فعلته على نحو ثابت . «حين سؤالها عن سبب مجيئها ، كانت تجيب بوجه عام ، والارتباك يعلو وجهها : «لست أدري ـــ لقد فعلت ذلك وكفى ـــ أردت المجيء .»

ترك لنا كوتكوف وصفاً ذا فائدة كبيرة يتناول كيفية إحداث السلوك بالتخاطر . هناك كما قال : عوامل ثلاثة لا تنفصم . أولا ، عليه أن يخلد إلى الراحة ، الاسترخاء بصمت ، «يتمتم عقلياً» بتعليماته . ثم عليه أن يتصور المجرّب عليه يقوم بما كان يودّ منه «أقصى ما هنالك من نشاط هلوسي أو نعاسي» . وأخيراً ، وهو الأكثر أهمية من كل ما عداه ، يأتي «عامل الرغبة» . فهو «يرغب بقوة» إلى المجرب عليه أن يطيع .

هذا كان ما فعله أيضاً كل من ديوك وبلاتونوف ، ويجب أن يبدو واضحاً

بحدود الآن أن الذي جعل الروس ناجحين جداً في هذا النوع من التجارب (ومايزال، في رأيي) هو فهمهم الحدسي لتأثير المجرّب، حيث أن المجرّب جزء من التجربة، التي تعتمد نتيجتها في قسمها الأكبر على كيفية قيامه بدوره في التجربة . ينطبق هذا على كافة التجارب التي تتناول العقل البشري ، بدءاً من التسبب في إنامة البعض وإرسال الصور حتى الشفاء من الأمراض مثل داء السمك بالإيحاء . إن لم يكن المجرّب ملتزماً كلية بالنجاح ، فلن ينجح على الأرجح . يصعب قبول ذلك على العلماء المدربين على اجراءات الخطوة ـ خطوة الموضوعية ، إنما كما أرى ، يجب دراسة الظواهر التلقائية من أي نوع من منظور اكتشاف نوعية الظروف التي تحدث خلالها بصورة طبيعية . إن توخي حدوثها طبقاً لأوامر في ظل شروط يفرضها المجرب «الموضوعي» هو مضيعة تامة للوقت .

في مقالة عن التنويم المغناطيسي كحركة (تفجر) نفسانية ، ركز د ، مكونيل على أكثر بحاثة Psi من السوفييت نجاحاً ونفوذاً حتى تاريخه ، ليونيد ل . فاسيلييف (١٨٩١ ـ ١٩٦٦) . فقد دخل الميدان بمؤهل نافع : لقد علم أن التخاطر يحدث ، لأنه كان حدث معه مسبقاً . عندما كان في الثانية عشرة سقط في نهر وأشرف على الغرق، بعد أن فقد قبعته الجديدة من جراء ذلك. كان والداه على بعد ثمانمئة ميل وقتذاك ، وقد توسل الصبي ليونيد إلى عماته ، اللواتي كن يتولين مهمة رعايته ، ألا يخبرن والدته حين عودتها إلى البيت . وقد بدا عليه أنه كان أكثر قلقاً بخصوص عقوبته جرّاء فقده قبعته من حقيقة كونه قد أشرف على الموت .

عندما عادت أمه بالفعل ، كانت هي من روى القصة بأكملها ، بالتفصيل . فقد «حلمت» بها إذ ذاك ، ووصل قلقها إلى درجة أخذت تتوسل معها إلى زوجها أن يبرق إلى البيت في الحال وهذا ما تظاهر بفعله كي يبقي على انشراحها ، لكنه لم يفعل في واقع الأمر.

انضم فاسيلييف إلى بختيريف عام ١٩٢١ ، وشارك في بعض تجارب ديوروف الكلبية . كان اهتمامه في المبتدأ نظرياً أكثر منه عملياً ؛ لقد أراد أن يعثر

على آلية فيزيائية للتخاطر وقد أمضى الكثير من وقته يختبر نظريات شخص إيطالي يدعى كازا مالي، الذي زعم أنه كشف موجات لاسلكية صادرة عن الدماغ. على الرغم من أنه لم ينجح في البرهنة على ذلك، فإن فاسيلييف لم تثبط همته كمجرّب من جراء فقدان الآلية المبرهن عليها. بعد كل هذا وذاك، حاول، إن الفيتامينات الهرمونات دخلت مجال الاستعمال قبل عزلها وتركيبها بزمن، لم يكتشف ما دعاه «كل تلك الشروط الضرورية للإنتاج التجريبي غير المعوق للظواهر العقلية بالإيحاء» حتى شرع في التطبيق العملي.

عند اشتغاله في إحدى مشافي لينغراد انطلق، بالتعاون مع منوم مغناطيسي يدعى د. فين، من أفضل التقاليد العلمية يعيد بعض أولى التجارب الفرنسية لجانيه، ريشيه وآخرين، فقد انتقى مريضة مناسبة وطلب إلى فين أن يدخلها في غيبوبة عميقة. ثمّ، بعد أن يقف حتى ارتفاع ستة أقدام وراء رأس المرأة كي لا تتمكن من رؤيته، يقوم بكتابة الأمر العقلي المقرر إعطاؤه ومن ثمّ يبثه، مستخدماً الطرائق التي ورد وصفها آنفاً على يد ديوروف، بلاتونوف وكوكتوف. وقد وجد أن الحاجة كانت تدعو إلى مقدار كبير من قوة الإرادة، لكن المرة تلو المرة كان قادراً على حمل المجرب عليها على أن تستوي جالسة، وتفتح عينيها، وتصالب ذراعيه، أو تحك مكاناً معيناً في جسدها طبقاً للأوامر.

مثل ريشيه كان يؤمن بالتجربة العفوية غير المخطط لها. ذات مرة، رفع ساقه اليمنى ببساطة وشاء عقلياً أن تفعل المرأة ذات الشيء. لاحظ: «تقوم المرأة موضع التجربة، مباشرة تقريباً بعد بدء الإيحاء بثني ساقها اليمنى، ثم ترفع الجزء الأسفل من ساقها.» سؤال من فين: من أمرك بفعل ذلك؟ المرأة المجرب عليها: «لقد كان أمر البروفيسور فاسيلييف.»

كان فاسيلييف متمشياً مع أدبيات Psi الدولية خلال كامل العشرينات، قبل أن يضع ستالين حداً لذلك النوع من العمل. كان يعلم أن البحاثة الفرنسيين والأغريق قد أعلنوا عن نجاح فيما يخص التخاطر على مدى مسافات عبر

قارية ، ومرة ثانية فقد اتبع الإجراء العلمي الصحيح وانطلق يكرر عمل زملائه ، باستثناء أنه عوضاً عن بث الصور البسيطة فقد كان يبث «الإيحاء العقلي للأعمال الحركية» . بعبارة أخرى ، الحركة التي يتسبب بها العقل ، وهذا هو تعريف بسايكو كينيسيس (الحركة النفسانية) .

بالتعاون مع د . آي . أف . توماشيفسكي كمنوم مغناطيسي ، وجد أن إحدى المجرب عليهن ، وهي امرأة شديدة الحساسية وتدعى ف . كروت ، يمكن حملها على النوم في غضون عشرين ثانية حتى عندما كان المنوم المغناطيسي بعيداً عن ناظريها . ثم وجد أن الشيء نفسه يحدث عند وجود توماشيفسكي في غرفة أخرى ، بناية أخرى ، أو حتى في جانب آخر من المدينة . استمرت ف . كروت تستسلم للنوم عند الإشارة ، ويلاحظ فاسيلييف على نحو ملغز أنها كذلك «كانت تستجيب لإيحاءات ذات مسحة حسية وعاطفية .»

ثم ذهب الباحثان إلى ما هو أكثر طموحاً من ذلك بكثير . وصلت امرأة حساسة أخرى تدعى إيفانوفا في زيارتها الدورية الساعة ٥ مساء إلى العيادة في لينغراد يوم ١٣ تموز ١٩٣٤ ، وتأهب توماشيفسكي لإجراء عمله الروتيني في استحداث التخاطر . في هذه المرة ، لم يكن في لينغراد على الإطلاق . كان في سيبا ستوبول على بعد يزيد عن ألف ميل .

فشلت التجربة فشلاً ذريعاً . مكثت إيفانوفا مستيقظة لمدة ساعتين ثم انصرفت إلى بيتها . ثم علم فاسيلييف أن توماشينسكي لم يكن على ما يرام في الموعد الذي رتّب مسبقاً ، لذلك لم يحاول البث . (لست أتمالك نفسي عن التساؤل عما إذا كان توماشيفسكي يقوم بدور زالف لإلغاء إمكانية قيام فاسيلييف بممارسة أثر موح من مسافة قريبة .) بعد يومين حاولا مرة ثانية ، وبقيت إيفانوفا هذه المرة تحت مراقبة شخص لم يكن يعرف نوعية ما كان يجري من تجارب . وهو لوحده في نزهته في سيباستوبول شرع توماشيفسكي يبث الساعة ١٠,١٠ مساءً . شوهدت إيفانوفا تدخل في غيبوبة تنويم مغناطيسي بعد دقيقة . في الساعة

١٠,٤٠ أرسل توماشيفسكي إشارة «الاستيقاظ» وفي ذلك الوقت بالضبط حسب المراقب- الذي كانت ساعته ، كما ساعة توماشيفسكي قد ضبطت على راديو موسكو- أفاقت .

أجرى فاسيلييف عدة تجارب بطريقة التحكم من بعد تحت التنويم المغناطيسي ، رغم عدم نجاحها جميعاً كهذه . لقد ألغز عليه حقيقة وجود فترة فاصلة قبل أن يستجيب المجرّب عليهم ، وتتراوح بين ما هو أقل من دقيقة إلى ٢١ دقيقة . لقد أوحى بعض النقاد أن الأشخاص المجرب عليهم علموا بنيّة تنويمهم مغناطيسياً عاجلاً أم آجلاً وكانت المسألة مجرد مسألة انتظار إلى أن يدخلوا في الغيبوبة ، نتيجة ترقبهم هم أكثر منه نتيجة إرادة منوم قاصٍ . ينطوي هذا على بعضٍ من معنى إلى أن تقرأ ما قالت بعض المجرب عليهنّ بالفعل أثناء التجارب . ربما كنّ قد لفّقن غيبوباتّهن ، إنما لا يمكن أن يكنّ قد لفقنّ رواياتهن عن مشاعرهن إلا إذا كنّ فتيات متكلفات ، وهذا ما لم يكنّه إطلاقاً .

تشير بعض التعليقات إلى أنه على الرغم من أن بعض المجرّب عليهن قد أدركن الرسالة على الفور، فإنهن لم يرغبن دائماً في إطاعتها . «ماهذا ؟» قالت إحداهن : «لقد سئمته ـ لن يدعني أرتاح في هدوء .» لكن سواء أردن أم لا فقد كنّ مطيعات دوماً .

يورد فاسيلييف بعض التعليقات المتعة عن عمله ، مبنيّة على ما قالته مريضاته أثناء التجارب وقد أجريت إحداها عام ١٩٣٤ يوم ٢٠ نيسان ، وكان لهابعض التفاصيل الخادعة . كانت المجرب عليها ، فيدوروفا ، إحدى المواظبات على عيادة توماشيفسكي ، ولم ينومها أحد غيره قط . في هذا الحين ، مع ذلك ، انهمك توماشيفسكي وفاسيلييف في عمل تمثيلي صغير لخداعها لمافي ذلك من فائدة للبحث . اصطحبها توماشيفسكي من غرفة في المخبر إلى أخرى ، في حين تظاهر فاسيلييف بمغادرة المكان كلية ، لكنه عاد في الواقع إلى الغرفة الأصلية وبدأ استحداثه للتنويم المغناطيسي . مكث توماشيفسكي مع الفتاة ولم يفعل شيئاً

إطلاقاً ، وبعد دقيقتين من شروع فاسيلييف بالعمل في الغرفة الأخرى ، دخلت في غيبوبة .

«من حملك على النوم ؟» سأل توماشيفسكي .

«أنت ،» أجابت فيدوروفا . «اليوم هو [كذا] بارع في استحداث النوم .»

كرر توماشيفسكي سؤاله ، وتلقى الجواب «توماشيفسكي» . سألها عما خطر لها كذلك .

«فاسيلييف يتسلل إلى راسي ،» قالت . «لقد خطر لي ، والآن يتسلل إلى رأسي .»

بعد بضع دقائق ، جرّب فاسيلييف تجربة أخرى من تجاربه العفوية ، وتصور طائراً . في الغرفة الأخرى ، استمر الحوار :

توماشيفسكي : «أخبرني بما يدور في رأسك»

فيدوروفا : «إنه يُري جيداً .»

«من هو ؟»

«فاسيلييف . عيناه تجحظان . . . ديك ، الآن أراه ، إنه يجلس إلى الطاولة ، هي مستديرة . لقد كان هو من أخذ كل شيء مني . . .»

«من نوّمك ؟»

«هو فعل . لقد أشلّني .»

دخل عند ذاك فاسيلييف الغرفة إلى منطقة محجوبة ، حيث مكث خمس دقائق مثل أن يحاول إيقاظها . إذ ذاك أبدت فيدوروفا ملاحظة غير عادية : «تريث لحظة . إنه يلف البكرة . كفى ذلك . بروفيسور فاسيلييف . توقفّ ! يتعين عليَّ الاستيقاظ . لست أرغب . حسناً . كفى .» (التوكيد من قبلي) . بعد ثلاث دقائق ، مع ذلك ، استيقظت بالفعل .

كان ما أثار اهتمام فاسيلييف بخصوص هذه التجربة أن فيدوروفا قد

حسبت في البداية أن من كان يقوم بالتنويم المغناطيسي هو توماشيفسكي ، لكنها لاحظت تدريجياً أنه لم يكن ، وأن من كان هو فاسيلييف . يبدو أنها قد التقطت كذلك صورته عن الطائر ، وذكرت بشكل صائب أنه كان يجلس إلى طاولة مستديرة . في الواقع ، كان يبدو أنها مدركة لوجوده وأفعاله خلال كامل الجلسة . ماذا كانت تعني بـ«لف البكرة» ؟ لاحظ فاسيلييف أنه في مناسبة أخرى لها علاقة فيزيائية ما بالمنوم المغناطيسي .

هذه الأشارات إلى خيوط وبكرات مثيرة بنوع خاص إذا أخذنا في الاعتبار نموذج بوهاريش في التخاطر بقواه الطاردة عن والجاذبة إلى المركز إن ادّعاء د . مكونيل أن التنويم المغناطيسي هو نوع من الحركة النفسانية (بسايكوكينيسيس) له من الدلائل ما يفرض دعمه ، وهذا يقوده إلى نتيجة مذهلة . كتب «نحن نواجه إمكانية كون التنويم المغناطيسي عملية كلية الوجود ، «غسل الدماغ» Psi التوسط يدخل بدرجة كبيرة أو صغيرة ، في العلاقات بين الأشخاص .

يعود الدليل مباشرة إلى أول كاتب بالذات عن المسمرية بعد مسمر نفسه . الماركيز دي بويسيجور ، الذي ترك لنا عدة تقارير تفصيلية عن «الظواهر السامية» التي جاءت من المجرّب عليه الفلاح فيكتور عام ١٧٨٤ . في إحداها ، دخل فيكتور في غيبوبة عميقة وشرع يتحدث عن مشاكله الشخصية :

عندما اعتقدت أن أفكاره قد تكون لها نتائج عكسية عليه ، كففت عنها ، وسعيت إلى أن أوحي له بما هو أكثر مرحاً ، الأمر الذي لم يأخذ مني كبير جهد . ثم بدا سعيداً وهو يتصور نفسه يفوز بجائزة راقصاً في حفلة الخ . لقمته هذه الأفكار ، ومن وقت لآخر أجبرته على الدوران على كرسيه ، كما لو كان يرقص على لحن كنت أغنيه (عقلياً) ، وجعلته يكرر بصوت عالٍ .

بعد أربع صفحات ، نرى بويسيجور أكثر صراحة فيما يتعلق بطريقة مقدرته على غسل دماغ فيكتور :

حين يتم تنويمه مغناطيسياً لا يعود ذلك الفلاح البسيط الذي قلّما يستطيع الإجابة عن سؤال ، إنه شيء لا يمكنني وصفه . فأنا غير محتاج إلى التحدث إليه ، أفكر أمامه وهو يفهم ويجيبني . إذا دخل أحد الغرفة ، يراه إذا كانت تلك مشيئتي ، ويتحدث إليه ، قائلا ما أرغب إليه أن يقول ـ ليس دوماً بنفس الكلمات بل ما هو في معناها . عندما يرغب في قول ما هو أكثر مما أعتبر ملائماً سماعه . أوقف أفكاره وجمله في منتصف كلمة ، وأغير عقله كلية .

قد لا تستهوينا فكرة تغيير أحدهم لعقولنا . فهي تتحدى أحد أقدس معتقداتنا : مشكلة حرية الإرادة . ومع ذلك إن أمكن نقل المعلومات من عقل لآخر بشكل تقود معه إلى الفعل من جانب المستقبل ، فبالتأكيد يجب أن نقبل وجهة نظر ماري سنكلير في أن عقولنا ليست كلياً خاصتنا ؟

هناك دليل قوي على أن المنوم البارع والشرير على نحو استثنائي يمكن أن يكره شخصاً حساساً على نحو غير عادي على التفكير وإتيان أعمال بعيدة عما هو في نطاق الشخصية السوية . وكان هذا ما قررته محكمة ألمانية عندما أرسلت فرانتز فالتر إلى السجن لمدة عشر سنوات عام ١٩٣٦ لابتزازه مبالغ مالية كبيرة من امرأة ، بعد اغتصابها عدة مرات ، وبعد أن قارب النجاح في إقناعها بقتل زوجها في ما لا يقل عن ست مرات . هذه القضية غير العادية ، ورغم أنها أشبعت بحثاً في زمانها ، قد لاقت اهتماماً ضئيلاً على نحو يدعو للاستغراب .

لحسن الحظ، مع ذلك، لا يبدو أن بالإمكان بصورة عامة تغيير أفكار الاخرين دون قدر من الموافقة ، لو كان ميسوراً لعن الناس حتى الموت عن طريق السحر الأسود أو الحركة النفسانية ـ بالتنويم المغناطيسي من مسافات طويلة لكان الجنس البشري قد انقرض منذ زمن . ربما كان ممكناً حمل جندي على مهاجمة ضابط بطريقة الإيحاء المباشر تحت التنويم المغناطيسي ، لكن يجدر النظر إلى هذا على أنه حالة خاصة لإنسان يفعل ما تدرب على فعله ، إطاعة الأوامر ومهاجمة الأعداء .

هناك وجهان لكل قطعة نقدية . إذا كان بالإمكان أذية الناس دون موافقتهم الواعية بالكامل ، كذلك من الممكن حملهم على فعل الخير الكثير عندما نحصل على تلك الموافقة . عندما نقصد عيادة طبيب ونحن نشعر بأوجاع وآلام غامضة ، فإننا نتوخىّ المعجزات ، ونوافق بصورة آلية على حدوثها . نحن متحررون عادة من مقاومة رغبات الطبيب . مثل هذه الظروف ليس بالمستغرب أن تحدث شفاءات ، من الواضح أنها عجائبية . عندما تمتزج فنون التنويم المغناطيسي ، والتخاطر والحركة النفسانية ، فإنه يمكن إقحام برنامج صحة جديد بمعنى الكلمة في جسم عليل . فالجسم ، كما العقل ، يمكن تغييره كلية ، إما عن طريق عقله ، أو عن طريق عقل شخص آخر .

قوة الإرادة

«الكهرباء» ، كتب برتراند راسل ، «ليست شيئاً ،ككاتدرائية القديس بولس ؟ إنها طريقة تسلكها الأشياء . عندما نأتي على ذكر كيفية سلوك الأشياء حين تتكهرب ، وتحت أية ظروف تتكهرب ، نكون قد قلنا كل ما هنالك للقول» .

الكهرباء ، تذهب الأسطورة ، اكتشفها أحد قدماء الإغريق عن طريق فرك أجزاء صغيرة من الكهرمان مع بعضها مولدة بذلك ساحة استاتيكية كهربية ، ولربما جعل ذلك شعر رأسه يقف وأفقده رشده . على أية حال استغرق الأمر ألفي عام لوضع هذا الإكتشاف موضع التطبيق العملي ، واليوم ، بعد مجرد مئة عام تماماً من افتتاح أول معمل للطاقة الكهربائية بصورة تجارية (في نيويورك ، عام ١٨٨٤) . الكهرباء هي من المسلمات . سلوكها قابل للتنبؤ به ونافع ، ونحن نستخدمها سواء فهمنا سلوكها أم لا . لسنا بحاجة لمعرفة سبب أزيز الألكترونات حول نوى الذرة ، وقفزها إلى مدارات مختلفة وحركتها في الأسلاك الممتدة ، هي تفعل ذلك وكفى . لسنا بحاجة حقيقية لمعرفة السبب .

لذا أية ورطة ندخل فيها إذا ما أردنا تعريف الكهرباء . كافة التعريفات في الحوار المتخيل التالي مأخوذة دون تغيير من (قاموس التراث الأمريكي) .

«ما الكهرباء ، يا بابا ؟»

«فئة الظواهر الفيزيائية الناجمة عن تواجد وتفاعلات الشحنة الكهربية» .

«أوه ، وما هي الشحنة الكهربية ؟»

«الخاصية المتأصلة في المادة والمسؤولة عن كافة الظواهر الكهربائية . . . حسن ، بإيجاز شديد ، الكهرباء هي حركة الألكترونات» .

«ما هو الالكترون ؟»

«هو جسيم دون الذرة . الجسيم هو «جسم مقدار الجزء الذي يشغله وحركته وبناؤه الداخليان ، إن وجد ، غير متناسبة في مشكلة محددة» . والجسيم دون الذري هو «الجزء المكون للمادة الذي لا يقبل الإختزال حسب الفرضية» .

«فهمت . ما هي المادة ، يا بابا ؟»

تلك التي تشغل حيزاً» . ويستمر الحوار على هذا المنوال ، حتى يمضي الولد المشوش بعيداً ليلعب بشيء يمكن له أن يفهمه ، كلعبة الحاسوب عالية التقنية .

بوجه الإجمال ، أجد برتراند راسل أكثر عوناً من قاموسي . ما يقوله عن الكهرباء ينطبق جيداً على التخاطر . فهذا هو طريقة سلوك الأشياء كذلك ، وحينما نقول كيف يتصرف الناس وهم يتخاطرون ، وفي أية ظروف يحدث التخاطر ، نكون قد قلنا كل شيء . الكهرباء أكثر قابلية للتنبؤ والثقة من التخاطر ، لكن لمجرد أننا استنبطنا القوانين التي تحكم سلوكها . ما نزال غير قادرين على تفسيرها ، إلا بعبارات شيء آخر . ينطبق الشيء نفسه على التخاطر ، باستثناء أننا لم نستنبط بعد القوانين المعنية . لقد شرعنا ، مع ذلك ، في هذا الأمر وأحرزنا نجاحات أكبر مما هو ملاحظ عموماً .

تتحكم في بعضنا فكرة مفادها أن التخاطر خارج نطاق العلم بشكل تجعلنا نرفضه كلية أو نرفض العلم كلية ، يتوقف ذلك على ما إذا كنا متطرفي عقول يمينية أو يسارية . كلا الموقفين لا يقدمان كبير مساعدة ، ومن المستغرب أن قلة من

الناس قد حاولوا حتى أن يصفوا سلوك التخاطر ، الأمر الذي يترتب حدوثه قبل أي أمل في تعليله . بل إن عدداً من الناس يقلّ عن ذلك لاحظوا وجود نقاط تشابه بين الطريقة التي يسلكها والطريقة التي تسلكها أشياء أخرى .

كما ذكرت مسبقاً ، فهو يسلك في بعض النواحي مسلك الجاذبية ، والجاذبية هي غموض كلي تقريباً . ليس من مسبب لها سوى وجود جسمين أو كتلتين تنجذبان إلى بعضهما حسب حجمهما . وهي دائماً إيجابية ، الأجسام في الفضاء تنجذب إلى بعضها على الدوام ، ولا تنبذ بعضها بصورة فجائية . وهي تعمل على نطاق مساحات شاسعة ـ يصل بلوتو في بعده عن الشمس إلى أكثر من أربعة بلايين ميل ، لكنه يبقى حيث هو بفضل الجاذبية في المقام الأول ـ ومع ذلك فهي قوة تبلغ من الضعف ما يجعل باستطاعة الطفل أن يتخطى جاذبية الكوكب برفعه لخشخيشته .

لا يبدو في الأمر أية آليات فيزيائية . أمضى عالم يدعى جو ويبر سنوات في عمق أحد مناجم الذهب في داكوتا الجنوبية وهو يأمل في احتجاز موجات الجاذبية في خزان سائل تنظيف ، دون أن يحرز نتيجة على ما يبدو . تنطوي الجاذبية على المعلومات والفعل من بعد معاً ، وعلى الرغم من أنه لا تتوفر لدينا أية فكرة عن كيفية عملها ، إلا أنها تعمل دون ريب ، وقد تعلمنا كيفية التعايش معها .

ينطوي التخاطر كذلك على معلومات من بعد ، وأحياناً على فعل كذلك . يتسبب به تواجد «كتلتين» عقليتين تجذب إحداهما الأخرى تحت شروط محددة موصوفة جيداً . إن كتلة عقلية في حالة استرخاء من التنبه الكوليني تنجذب إلى كتلة عقلية في حالة متوترة من التنبه الأدرينالي . يبدو أن القوى المعنية هي الجابذة والنابذة .

النابذة تعني «الهروب من المركز» ، كالماء في مرشّة حديقة ، جابذة تعني «الإنجذاب نحو المركز» ، كالماء يجري نحو فتحة قابسية . لقد درجنا على احتساب التخاطر على أنه عملية ترسل المرشّة بواسطتها رسالة وتقوم فتحة القابس

بجذبها ، إنما حسب نموذج بوهاريش العكس هو الصحيح . المستقبل هو المرشّة المرسل هو الفتحة . دعني أوضح ذلك .

افرض أن عقل أو كتلة المستقبل العقلية تكنس الغلاف الجوي مثل مرشة ضخمة بطيئة الحركة ، وعقل المرسل يجذبها بواسطة القوة الجابذة للوضع شبيه الدوامي . عندما يتحدث المستقبلون عن لف بكرات ، يبدو أنهم يصفون شعورهم وهم في قبضة قوة جابذة وانجذابهم نحو الدوامة ، أكثر من كونهم جالسين مستقبلين «سلبيين» . بلغة الرادار ، المرسل هو مجرد نبضة على الشاشة تنتظر انتقائي ، الجاذبيةلا . أية كتلة في الفضاء تجذب أية كتلة أخرى في الفضاء ، لكن الإشارة التخاطرية تصل إلى المقصد المناسب بطريقة أو بأخرى ، حتى عندما لا يعلم المرسل العنوان الصحيح ، شريطة أن يكون عقل المستقبل في الحالة الملائمة . إذا لم يكن تضيع الرسالة ، أو في بعض الحالات يتم استلامها في مكان آخر بدلاً من ذلك .

في حالة اللحامين البوسطونيين يبدو أن أفكار جاك سوليفان الأولى عندما دفن حياً كانت تتجه إلى زوجته وأولاده ، هذا أمر طبيعي جداً . تومي ، زميله في المهنة ، كان تفكيره الثاني . صورته «خطرت له» ، كما عبّر هو عن ذلك . تومي ، من جانبه ، استقبل ببساطة دافعاً يدفعه إلى الذهاب إلى مكان محدد رغم أنه لم يعرف أن جاك كان هناك. فقد كان كما لو أنّهُ تلقى شدة عقلية، كمتسلق جبال عندما يشعر بشدة في حبله تنبيء أن زميلاً له في ورطة .

توحي هذه الحادثة بأن عقلاً لا واعياً ذكياً على نحو مدهش يعمل . لم تكن عائلة جاك بقادرة على مساعدته ، لأنهم لم يعرفوا مكان وجوده . تومي لم يعرف مكانه أيضاً، لكنه كان يعرف الموقعِ في شارعِ واشنطن، والإشارة التي التقطت كانت لصورة الموقع ، وليست لجاك . فضلاً عن ذلك ، لم تكن هي رسالة ، بل أمراً .

تقود انتقائية التخاطر إلى مشابهة أخرى : تمييز الشكل . كل حواسنا

المعروفة تعمل بالتعرف إلى الهيئة أو الشكل ، ورد الفعل نحو درجات احتماليتهما النسبية . اليكم مثالاً على عمل كل إحساس بهذه الطريقة :

إذا أقدم جارك على قطع شجرة كبيرة وأنت غائب تقضي عطلة نهاية الأسبوع ، كما فعل جار لي ذات مرة ، فإنك مهيء لصدمة حين عودتك . في البداية لا يمكنك تعليل ذلك ، هناك شيء ما خطأ وكفى . أخيراً تلاحظ أن المنظر الشمولي من نافذتك قد تغير . فقد اختفى احد الأشكال المألوفة فيه . عندما استعملت صناديق الهاتف برتقالية اللون في لندن ، أثار ذلك حفيظة بعض الناس . يجب أن تكون صناديق الهاتف حمراء . أي صندوق برتقالي كان لا احتمالية ليست على الرحب والسعة .

احساس السمع لدينا انتقائي على نحو مدهش واعتمادي على الشكل ، بطريقتين متباينتين . فهو يتجاهل الأصوات التي ليس بحاجة إلى سماعها ، ومع ذلك فهو يتصرف بحدة نحو أضعف الأصوات اللامحتملة . إن شغلت آلة تسجيل ، وتركتها تسجل «لا شيء» لبضع دقائق ، ثم أعدت دورة الشريط ، لسمعت كافة أنواع الضجيج ـ صوت تنفسك ، صرير كرسيك ، دوران وتوقف محرك البراد ، مرور السيارات أو سقسقة الطيور في الخارج . لم تنتبه بشكل واعٍ إلى أي من الأصوات في ذلك الحين . فقد قُبلت كلها كونها محتملة .

لقد تسنّى لي ذات مرة أن أشهد عرضاً معبّراً لآثار اللاّاحتمالية. كنت بصحبة بعض الأصدقاء في البرازيل وقد ولدت كلبتهم عدداً كبيراً من الجراء النشطة ، وكان ستة منها يلهون معها ، محدثين بذلك ضجة كبرى . فجأة ، اندفعت مضيفتنا خارج الغرفة وعادت بحيوان مبلل مذعور انتشلته من حوض السباحة في الحديقة وانقذته من غرق محتمل. لم أسمع صوتاً واحداً ، ولم تسمع أم الكلب على مايبدو، والتي كانت عيناها تراقبنا نحن وجراءها. قد يكون هذا مثالاً على التخاطر أو السماع الشديد الإنتقائية ؟ فقد كان هناك الكثير من عواء الفرح الصادر عن الجراء الأخرى ، ولو ندَّ صوت عن جرو الحوض لما كنت

سمعته بالتأكيد . هل كانت تسود حالة من التخاطر حينما سدت جميع الأقنية العادية ؟ لم تظهر الكلبة الأم ، بالمناسبة ، أي رد فعل على الإطلاق ، ربما لأنها كانت تركز علينا لتتأكد من أننا لا نلحق أذى بصغارها . لم تكن في حالة تنبه كوليني كاف لالتقاط الرسالة .

هذه الحادثة ، التي ستبدو مألوفة لكثير من الأمهات اللواتي «اتفق» أن داخلهن تفكير بأولادهن لحظة وجودهم في خطر ، هي عكس «أثر حفلة الكوكتيل» ، الذي يجعلنا قادرين على سماع ما يقوله من نريد مقابلته وهو في الجانب الآخر من الحجرة ، بينما نتجاهل ثقيل الظل الذي يزعق على مقربة من أنوفنا .

عام ١٩٦٠ أفلح ستيفن بلاك ومهندس بحاثة من هيئة الإذاعة البريطانية (البي بي سي) في استجرار صمم انتقائي في ستة من ستة أشخاص خاضعين للتجربة ، عن طريق إعطائهم إيحاءً مباشراً تحت التنويم المغناطيسي وهو أنهم لن يسمعوا نغمة موسيقية محددة بتردد (٥٧٥) هرتز (سايكل بالثانية) ، بالرغم من أنهم سيسمعون كافة النغمات الأخرى بصورة طبيعية تماماً . في التجارب الموجهة بشكل دقيق أظهروا أن بالإمكان استجرار هلوسة سمعية سلبية تحت التنويم المغناطيسي . وقد أفلح المنومون الأوائل في التسبب في صمم كلي أو جزئي عند بعض الناس ، إنما ليس صمماً انتقائياً . كان هذا مثالاً على انتقائية سلبية ذات دقة كبيرة ، وإذا أمكن عرض ذلك تحت التنويم المغناطيسي ، يمكننا الإفتراض أن حواسنا الأخرى قادرة على ممارسة انتقائية مماثلة ، إيجابية كانت أم سلبية . ومنه نستنتج أن حاستنا السادسة ربما استطاعت كذلك .

إن الإتكاء على الشكل عند حاستي الذوق واللمس لدينا من السهل البرهنة عليه . حاول أن تقدم لأحدهم شراب الجن وشراباً مقوياً بدون أي جنّ فيه ، كما فعلت ذات مرة في نوبة فرط يمين عقلية ، أو يدك في تلمسها طريقها إلى مفتاح الكهرباء بجانب السرير وإمساكك بأذن الهرة إذا أردت تمثيل ذلك . فيما يخص

احساس الشم ، فقد برهن مؤخراً ، أن هذا يتم «بالتحليل النمطي للشكل الجزئي» ـ ومن المعروف جيداً كيف تستقبل الكلاب معلومات دقيقة وهي على مسافة وذلك باستعمال هذه الحاسة .

لا يقتصر الاعتماد على الشكل على حواسنا ، بل يمتد إلى كل خلية في أجسادنا . حينما تحدث في داخلنا حادثة غير محتملة ، تحدد أجهزتنا المناعية مكانها وتبذل جهدها في محاولة القضاء عليها . تشنّ الضربات الإنتقامية في شكل كريات الدم البيضاء ، وإذا فشلت ، يعاني الجسم بكامله . في الأيام الأولى لزرع الأعضاء ، يمكن إعطاء المريض قلباً جديداً على درجة عالية من الجودة ، لكن جسمه يرفضه ويموت المريض . لم يكن هذا بسبب عدم جودة القلب ، بل لأنه كان قلب انسان آخر . كان الشكل خطأ ، والمعلومات المستقاة من هذا الشكل الخطأ أقامت آلية رفض هائلة .

عرّف ستيفن بلاك العقل على أنه «المنظومة المعلوماتية المستقاة من مجموع لا احتمالية الشكل المتأصل في مادة الأشياء الحية» . هذا التعريف مفيد ، حيث أنه يساعد في تحديد مكان العقل ليس في إحدى زوايا الدماغ بل في كل خلية بمفردها في الجسم وصولاً إلى أظفار أصابع القدم . ومع ذلك فهذا يقودنا إلى تناقض آخر : المنطقة اللاإرادية في العقل ترفض اللااحتماليات ، لكن جزءاً آخر في العقل لا يرحب بها فقط بل يحتاجها . أن تكون لدينا قابلية التأثر بالإيحاء ، كما هي الحال مع معظمنا وكما يجب أن نكون ،ينطوي على رغبة في قبول الأفكار الجديدة ، ويستغل كتّاب نسخ الدعاية والإعلان هذه الرغبة أيما استغلال . قد تضع عقولنا اللاإرادية اعلانات تقول : كافة اللااحتماليات سيطلق عليها النار حال ظهورها ، لكن هناك لافتة أخرى في مكان آخر في العقل تقول أهلاً باللااحتماليات ادخلن دون أن تقرعن . من المحتمل أن يطوّح بها بعد بضع دقائق ، إنما تعطى فرصة لكل من الزائرين لقول مقطوعته .

ينطوي التخاطر على استجابة فورية على رسالة لااحتمالية . يقول المرسل «النجدة» أو «كنت على وشك الإتصال بك تلفونياً» ويتصرف المستقبل تبعاً لذلك . في الفصل الأخير ، نوهت إلى أن السبب الذي جعل تومي يستلم رسالة جاك هو أنه كان يعرف حرفيّاً عقل جاك . فقد تعرف على شكله . هناك كان ، يلحم بصورة آلية ، راداره العقلي يمسح الفضاء بدون انشغاله بعمل آخر ويلتقط «كافة أنواع الأشياء غير الملائمة» كما عبّر هو عن ذلك ، حينما على حين غرّة ـ ومضة ! التقطت إشارة تشير إلى أن شيئاً ما يتوجب فعله في الجانب الآخر من الموقع . لم تكن رسالة دقيقة جداً ، مجرد دافع وحيد كانت قوته كافية للحصول على نتائج .

في تخاطر الأزمة ، وهو النوع الأسهل تمييزاً من غيره ، ترد الرسالة في شكل قطع صغيرة منفردة ، أو حتى في شكل قطعة وحيدة . بعض أشكال المعلومات أكثر سهولة من غيرها عند استعمالها للترميز وفك الترميز . أسهل المعلومات هي انفعالات قوية مرتبطة بخطر أو موت . أما الأعسر فهي تلك التي تنطوي على استعمال كلمات محددة ؛ يمكن لحرف غريب أن يصل ، لأن للحرف شكلاً واحداً فقط ، بينما الكلمة بحاجة إلى عدة أشكال مختلفة دفعة واحدة ، وفي التخاطر لا تصلك بوجه عام عدة أشكال مرتبطة مع بعضها في آن .

كان شارل ريشيه أول من نوّه إلى أن الرسائل التخاطرية هي في الأغلب رمزية . فالمستقبل ، كما قال ، كان كمن يعيد تكوين الدراما . «قد يكون المشهد صادقاً نوعاً ما ، والجزئيات خاطئة نوعاً ما ، ومع ذلك فالحبكة موجودة» .

يجنح المستقبل ، رغم ذلك ، إلى تعليل نتف المعلومات المستقلة على ضوء ما هو معروف عن المرسل من قبل . ويعرف هذا بـ «الاضفاء التحليلي» ، الذي يقوم فيه العقل الأيسر بالاستدلال مستنداً إلى المعلومات التي مررت إليه عن طريق الأيمن ، وهو يتلقاها بالشكل الخاطىء في الغالب . هذا ما حدث عندما تهيأ لي في

صورة الغنزفيلد البعيدة أنها صورة الرئيس ماو وليست بكل بساطة شكلاً مستوياً على قاعدة .

نتوقع أن تكون رسائل الأزمة أسهل للبث من تلك التي لا تنطوي على أي طارىء حقيقي ، وكذا أكثر سهولة للتعليل الصحيح . وعليه فالمرأة التي أفاقت في الليل من جرّاء إشارة قوية من طفلها سوف يتهيأ لها ، اعتماداً على الظروف ، أن طفلها بحاجة إلى الاهتمام بأمره ، أو أن ابنها المراهق الذي خرج بسيارته قد حصل له حادث . يبدو أن للأفراد اشارة استغاثتهم الخاصة بهم ، كالطائرات ، وفي بعض الأحيان اشارة النداء هي رسالة بحد ذاتها . ولا حاجة هناك لمزيد من المعلومات .

في التجارب المخطط لها كتجارب آل سنكلير ، نجد المرة تلو المرة أن المستقبل يتلقى الشكل على نحو صحيح لكن تعليله خاطىء، بفضل الإضفاء التحليلي ، أو مجرد وضع قطع المعلومات معاً بترتيب خاطىء . يعطي أبتون سنكلير عدة أمثلة على ذلك . عندما رسم ستة عشر صليباً في أربعة صفوف كل منها يحوي أربعة ، رسمت ماري حزمة نجوم ومن ثمّ أضافت قمراً هلالاً . فقد التقطت رسالة حزمة الصلبان ، أولتها (بشكل خاطىء) على أنها مجموعة نجوم ، وأضافت شيئاً ربطت بينه وبين النجوم : القمر . في مناسبة أخرى ، رسم مظلة ذات يد معقوفة ، وأعادت ماري رسم الشكل بدقة كبيرة . لكنها أضافت تالياً كلمة «أفعى» إلى رسمها ، ولاحظ أبتون أنها كانت تخاف جداً من الأفاعي وكانت تراها دائماً في الحديقة ، رغم أنها لم تكن في الواقع سوى قطع من الأغصان والأفرع تقبع في الخميلة . هذا هو الاضفاء التحليلي للعقل الأيسر في شكله الناشط .

أما فيما يخص التجميع الخاطىء للأجزاء ، فقد حدث مثال تام عليه في إحدى أولى التجارب من هذا النوع التي وصفها بشكل جيد طبيب من برلين يدعى كارل براك ونشرت في (الأمريكي العلمي) عام ١٩٢٤ . رسم د. براك

مقصاً ، وهذا بلغة العقل الأيمن زوج من الدوائر تتصل ببعضها بطريقة معقدة نوعاً ما . رسم الشخص المجرب عليه دمبل[1] ، وهذا أيضاً يبدو كدائرتين متصلتين ببعضهما . عندما طلب إليه القيام بمحاولة أخرى ، رسم عندئذ زوجاً من النظارات ! وبنوع من الصبر التيوتوني المدهش ، طلب إليه براك الاستمرار ، وفي المرة الثالثة أصاب الهدف .

كانت تجارب براك ممتعة جداً في نواحي أخرى . فقد استوعب أهمية وضع أشخاصه المدروسين في الإطار العقلي الصحيح ، «دون ترهيب أو شك عدواني يعوق نفس الشخص المدروس» وقد لاحظ وجود فترة زمنية فاصلة ، يرسم فيها المجرب عليه الصورة الهدف بشكل خاطىء ، ومن ثمّ ينتقل إلى هدف آخر ـ ويرسم الذي قبله بشكل صحيح . كذلك لاحظ أن التخاطريين لهم أوقات إبداعهم ككافة الفنانين تماماً . «علينا أن نتوقع أن يكون النجاح نزوياً» ، كتب ، «ونحن نلفاه كذلك» . كان انجازه اللافت للنظر يكمن في بث بعض الصور بدقة شديدة وتفصيل أكبر ، عن طريق الإفادة من التنويم المغناطيسي وإطالة التجارب إلى أن يتم بث الهدف بشكله الكامل . إن بحث براك المهمل على غير انصاف يعتبر الأكثر نجاحاً من نوعه فيما بلغ إلينا حتى الآن .

حتى هنا ، لم أقم سوى بمناقشة التخاطر في شكله الأبسط والأكثر تمييزاً ، كما أتيت على ذكر بضعة أمثلة على بعض حالاته الخاصة . بإيجاز ، التخاطر هو وسيلة نقل للمعلومات حين لا تتوفر الوسائل الأخرى ، بين عقل في حالة من التنبه الأدرينالي وعقل آخر في حالة من التنبه الكوليني . المستقبل لا المرسل هو العنصر النشيط في الفريق . فهو يتلقى المعلومة عن طريق التعرف إلى إشارة لا احتمالية كتحديد شخص ، مكان ، شيء أو عاطفة معينة . يتم استقبال المعلومات أحياناً بشكل يدفع المستقبل إلى القيام بفعل ما نتيجة لذلك . تنطوي هذه الأمثلة على

---

(١) الدمبل : كرتان حديديتان يصل بينهما قضيب يستعمل لتمرين العضلات . (المترجم)

الحركة النفسانية (بسايكو كينيسيس) إضافة إلى التخاطر. إلى حد ما يمكن استجرار التخاطر تحت شروط مخبرية مضبوطة، مع أو بدون مساعدة التنويم المغناطيسي، شريطة أن يكون عقل كل من المرسل والمستقبل في حالتهما الملائمة.

يكفي هذا القدر من حالات التخاطر الخاصة التي رواها علماء الأبحاث والناس العاديون. والآن أصل إلى مجال التخاطر العام في الطبيعة.

جلّ ماسيتلو مبني على التخمين ـ ليس تخميني أنا، بل تخمين مختصين يقومون، لا بد من التأكيد، بالتخمين في حقل اختصاصهم. أضمّن هذاالمقطع كتاباً بنيته على الوقائع وليس بالحري على التخمين كي أعطي فكرة عما يمكن أن يكون حاصلاً في الطبيعة لن أزعم أبعد من ذلك.

يقال غالباً إن عظماء الناس قد يكونون بسخافة أيما فرد آخر عندما يتعرضون بالمناقشة لمواضيع لا تندرج ضمن نطاق تخصصهم. في الأعوام الأخيرة، على سبيل المثال، غدا أحد الفائزين بجائزة نوبل لتطويره الترانزستور سيء السمعة من جرّاء آرائه في التفوق العنصري. ومع ذلك فعندما يرتأي علماء البيولوجيا أنه قد يكون هناك عامل psi ناشط في موضوعهم ـ البيولوجيا ـ فإنهم يستحقون على الأقل حسن السماع.

تأتي أوضح المقولات الحديثة عن هذا الاحتمال من البروفيسور السير آلستر هاردي، زميل الجمعية الملكية في جامعة اكسفورد، والذي يشتمل حقل اختصاصاته على علم الأحياء البحرية، علم الحيوان، وعلم البيئة ـ الدراسة العملية لتفاعلات الكائنات الحية إذا نظرنا إليها كمنظومات كلية ـ إضافة إلى ميدان آخر أكثر حداثة سيرد ذكره في فصل آخر.

كان عنوان إحدى محاضرات جيفورد التي ألقاها في جامعة آبردين عام ١٩٦٣ ـ ٦٥ في «التطور وروح الإنسان» «البيولوجيا والتخاطر»، وبعد إلقاء نظرة عامة مطولة على دلائل هذا الموضوع الأخير، كان هذا ما قاله:

«إذا ثبت وجوده في الإنسان ، وأعتقد أن الدليل طاغ ، وإذا اعتقدنا أن الإنسان وجدول الحياة واحد ، عندها يبدو من غير المحتمل أن تبقى ظاهرة لافتة كهذه محصورة ببضعة أشخاص من نوع حيواني واحد» . قد تكون «مبدأ بيولوجياً أساسياً» ما انفك يعمل طوال الوقت على مستوى اللاوعي ، دون أن يدري به إلا قلة منا أحياناً .

لم تكن له محاورة مع داروين ، ووالاس ، ومندل ، روّاد ما وصفه هو «الاسهام الأعظم الذي قدمته البيولوجيا للتنوير البشري حتى الآن ـ ألا وهو ـ نظرية التطور . وقد رحّب بالاكتشاف الحديث (آنئذ) لكريك وواطسن لبنية جزئي الـ (DNA) رغم أنه لم يسرّ لزعم كريك أن «أجهزة التحكم الحاسمة في الحياة» قد تقلصت إلى «مادة من نفس النظام الذي تمّ فيه ترتيب الوحدات في جزئي ضخم» . شعر أن هناك شيئاً مفقوداً في تلك المفاهيم ويمكن أن يكون هذا عاملاً مستقلاً عن شيفرة الـ (DNA) التي تولت أمر التطور الجسدي . يمكن أن يكون هناك «جانب نفسي في الحيوان» يتفاعل مع نظامه الجسدي الخاص ، وبصورة غير مباشرة، مع الأنظمة الجسدية لكافة أفراد الأجناس الأخرى .

«إذا تأسس» ، تابع ، «أن انطباعات التصميم ، الشكل ، والخبرة . . . . يمكن أن تنتقل أحياناً عن طريق التخاطر من فرد بشري إلى آخر أليس من المحتمل أن يكون هناك في المملكة الحيوانية ككل ليس انتشاراً تخاطرياً لتغيرات العادة فحسب ، بل مشاركة عامة لا واعية في الشكل ونمط السلوك ـ نوع من تصميم أولي «طبعة زرقاء» نفساني ـ يشترك فيها أفراد الجنس ؟»

يوضح البروفيسور هاردي أنه كان يخمن ، ولم يقدم اعتذاراً لفعله ذلك . «الفرضية هي وقود التقدم العلمي» ، قال : «انه بالتجريب ورفض الأفكار فحسب يمكن لنا أن نقترب من الحقيقة» .

لا يبدو أنه قد بدا ميسوراً في الستينات وضع فرضية التطور المستجر بالتخاطر على محك التجريب ، لكن عام ١٩٨١ أشار عالم بيولوجي آخر ،

د. روبرت شيلدريك من جامعة كمبردج أن هذا قد تمّ لخمسين سنة خلت ، في سلسلة طويلة من التجارب تمّ تأكيدها لاحقاً بشكل مستقل .

إن فرضية شيلدريك ، التي أثارت ضجة حقيقية في الدوائر العلمية ، هي التالية . عن طريق عملية يدعوها السببية التشكيلية يتم إملاء شكل كافة الكائنات الحية ليس عن طريق عمليات جسدية وناشطة معروفة فحسب ، بل كذلك عن طريق مجال تنظيمي غير ناشط يدعوه التكون التشكلي (مورفو جينيتك) ، من الكلمة اليونانية «مورف»، الشكل وجينيسيس، التكون . يعمل هذا بواسطة «الرنين التشكلي» وهو نفسه يتشكل ويتعدل عن طريق خبرة الوحدات التي يساعد في خلقها . بعبارة أخرى ، حالما تتكرر خبرة مكتسبة بما فيه الكفاية ، فإنها تصبح جزءاً من المجال التكوني التشكلي للأجناس ذات العلاقة ، وفي نهاية المطاف يكتسبها كافة أفراد الجنس

وقد تمّ ترويج جزء من هذه العملية وتقريبه إلى إفهام الجمهور على يد ليال واتسن على أن ذلك هو «أثر القرد المئة» إذ ما إن يقم قرد افتراضي رقمه مئة بتعلم غسل الطعام قبل تناوله ، حتى تبدأ كافة القرود فجأة في كافة الأمكنة الأخرى بفعل ذات الشيء . لم تتم البرهنة على هذا ، بقدر ما تيسر لي الكشف . ولم يذكر في أي من المراجع المدرجة في اللوائح والتي تمكنت من العثور عليها ، ويقر واتسن أن جل قصته قائم على «مسرودات شخصية وبعض أجزاء فولكلورية في أوساط بحاثة الحيوانات العليا» . ومع ذلك فهناك بعض من حقيقة في هذا .

هناك دلائل منشورة أفضل بكثير عن وجود «أثر الجيل الثاني والثلاثين للفأر» . عندما كان ويليام مكدوجال يؤسس قسم الباراسيكولوجيا في جامعة ديوك مع آل راين، كان في منتصف تجربة، الغرض منها تبين ما إذا كان باستطاعة مجموعة مدربة من الفئران ، على مدى أجيال ، تعلم مهمة بسرعة أكبر على نحو مطرد من المجموعة غير المدربة الضابطة وسلالتها. استغرقت التجربة خمس عشر سنة واثنين وثلاثين جيلا من الفئران ، وكررت لاحقا في استراليا مع خمسين جيلاً . لم

يكن الغرض من أي من مجموعتي التجارب البحث عن التخاطر ، بل عن شيء أكثر ازدراء من الناحية العلمية . نظرية لامارك في أن الخصائص المكتسبة ترثها الأجيال المتعاقبة . وهذا يعادل رواجاً شعبياً في أيامنا هذه القول إن الأرض مسطحة أو أن القمر مصنوع من جبن الغرغنزولة .

ومع ذلك ، فقد وجد مكدوجال أن هناك تزايداً تدريجياً في معدل التعلم ، وهذا ما تتنبأ به فرضية شيلدريك . كان هناك شيء آخر ، وهو يبدو أنه يقدم بعض دعم إلى فرضية هاردي : زيادة في معدل تعلم المجموعة الضابطة كذلك . ما كان هذا ليحدث عن طريق وراثتهم المقدرة من جينات أسلافهم . ما كانوا ليفعلوا هذا إطلاقاً ، ولا يداخلني شك في أن محرر (نيتشر) كان يفضل لو لم يفعلوا . ومع ذلك فقد حصل هذا ، وأحد التعليلات المحتملة لكيفية فعلهم ذلك هو التخاطر .

لم يتوفر الكثير من الأدلة لدعم مثل هذه الفكرة أيام مكدوجال (توفي عام ١٩٣٨ . ولا يتوفر الكثير في يومنا هذا أيضاً ، لكن هناك بعضاً منها ، بفضل (العالم الجديد) (بكسر اللام) وبفضل شيلدريك نفسه ، الذي حث الآخرين مراراً على اختبار فرضيته . بنهاية عام ١٩٨٣ بدأت النتائج الأولى ترد ، ورغم أن التجارب المعنية كانت غريبة نوعاً، فإن النتائج كانت كلها ايجابية . كانت إحدى التجارب تنطوي على تعلم أغنية يابانية للأطفال واغنيتين ضابطتين ، كتبت إحداهما خصيصاً للتجربة من قبل شاعر ياباني ، والأخرى مجرد سلسلة مقاطع لا معنى لها . كانت الأغنيات الثلاث كافة من نفس الطول ، والتفعيلة والقافية . كانت الفكرة أن المجّرب عليهم من غير اليابانيين سيجدون الأغنية الحقيقية سهلة التعلم ، لأن الملايين من صغار اليابانيين كانوا تعلموها قبلاً .

من المجموعة الأولى التي خضعت للتجربة وجد أكثر من النصف (٥١ بالمئة) أن الأغنية الحقيقية هي الأسهل تعلماً في حين وجدتها مجموعة ثانية حتى أسهل من ذلك ، وتعلم ٦٢ بالمئة منهم الأغنية بصورة أسرع من كل من الأغنيتين

الضابطتين . لو اكتفينا بالمصادفة لوحدها ، لكانت النسبة المئوية حوالي مستوى ٣٣ بالمئة .

أعطت التجربة الأخرى نتائج أكثر إيجابية . بعث شيلدريك بصورتين فوتوغرافيتين متميزتين عن بعضهما بشكل كبير وتحويان صوراً مستترة إلى زميلين في بلدان خارج مدى التلفزيون البريطاني . وقد عرضت إحداهما وقتذاك في بريطانيا ، والصورة عادية التمييز مركبة فوقها . اختبر المجربون فيما وراء البحار مجموعات من الناس قبل وبعد العرض على الشاشة ، حتى يتبينوا عدد الذين يميزون الصور ، وعدد الذين يفوقونهم والقادرين على تمييزها بعد أن دخلت احداثها عى وجه الأفتراض مجالات التكون التشكلي لمدمني مشاهدة التلفزيون البريطاني ، إنما ليس ، بالطبع ، مجالات المجرب عليهم أنفسهم .

في حالة الصورة الضابطة التي لم تعرض ، ازداد عدد الذين تمكنوا من تحديدها من المجرب عليهم إلى ٩ بالمئة بعد عرض الصورة الأخرى . لكن الزيادة في النسبة المئوية لتحديد الصورة التي عرضت كانت ٧٦ . ما يستدل من ذلك هو أنه حالما يتوفر لدى أي من أفراد الجنس البشري أية خبرة ، فإن الآدميين الآخرين يكتسبونها بصورة آلية . من المؤكد أن الحال ليست هكذا على الدوام ؛ لقد اختتن الأطفال اليهود على مدى آلاف السنين ، ولا يزالون يولدون دون اختتان . قطع عالم الحيوان أوغست وايزمان ذنوب اثنين وعشرين جيلاً من الفئران ليرى ما إذا كان هذا يؤدي إلى ولادة فأر دون ذنب . لم يحصل ذلك .

وكما نوّه آرثر كوستلر ، فقد ارتأى لامارك أن الخصائص المكتسبة تورث عندما تخدم غرضاً نافعاً فقط . «واقتطاع ذنب الفأر بالكاد أن يكون حاجة حيوية للفأر» . وكذا ، فتعلم أغاني الأطفال اليابانية وفك لغز تجارب الرورشاخ المتلفزة لا تخدم حسبما أرى غرضاً نافعاً . إن نتائج التجارب الأولى لنظرية شيلدريك مضللة ، لكنها ستحتاج إلى كثير إعادة .

في ذات الحين ، إن الدلائل من النوع الأكثر تقليدية والتي توحي أن للتخاطر قيمة البقاء قد جاءت من نوفوسيبرسك في سيبريا ، المركز البارز للأبحاث في ميادين عدة في الإتحاد السوفياتي . فهي ذات أهمية خاصة لأسباب ثلاثة : كونها تنطوي على إحدى التجارب القليلة في أي مجال خارقي سبق وبلغ عنه أي باحث سوفييتي بتفصيل كاف يسمح لآخرين أن يعيدوها ؟ تدعم بشكل كامل النتائج التي توصل إليها مكدوغال والتي ذكرت أعلاه ؟

والشخص الذي قام بالعمل كان د. سيرغي ف. سبيرانسكي ، تلميذ سابق لفاسيلييف . هذا دليل له بعض الاستمرارية على الأقل في بحوث الـ psi السوفييتية .

نشرت التجربة موضع البحث لأول مرة في المجلة العلمية السوفييتية (الكيمياء والحياة) عام ١٩٧٥ . كان غرض سبيرانسكي الأساس دراسة تأثيرات أحد السموم الكيميائية على المنظومات الحية عن طريق تجربة قياسية . بدأ التجربة بأن أخذ أربع مجموعات من الفئران الذكرية المتشابهة ، ووضعها في أقفاص منفصلة جنباً إلى جنب ، وأعطاها جميعاً المقدار نفسه من الطعام . ومن ثمَّ ، «ولأسباب تقنية» علقت التجربة وبقيت الفئران دون «إخضاعها لأي تأثير هادف» (أي : تسميمها) .

ذات يوم ، بينما كان ينتظر على وجه الافتراض أن يظهر السّم ، لاحظ سبيرانسكي أن مجموعات فئرانه الأربع «المتشابهة» لم تعد متشابهة . وقد اكتسبت كل مجموعة في قفصها نموذجها الخاص من السمات الاجتماعية . وقد ضلله هذا ، لذلك أقلع عن تجربته السميّة وعزم على استكشاف هذا التطور الجديد . وقد بدأ من جديد مرة ثانية ، ووجد الشيء نفسه يحدث : بعد اسبوعين ظهر عند مجموعة فئران في مكان محصور ملامح تميزها عن المجموعات الأخرى .

قرر سبيرانسكي الذهاب إلى نقطة أبعد من ذلك والتأكد فيما إذا كان بإمكانه حمل فئران مجموعة ما على نقل معلومات محددة من مسافة بعد عزلها عن زميلاتها

أفراد المجموعة . لذلك قام بتقسيم إحدى مجموعاته إلى مجموعتين فرعيتين ، ونقل إحداهما إلى الطابق الرابع من البناء تاركاً الأخرى في الطابق الأرضي . وقد أطعم كلا المجموعتين بصورة طبيعية لفترة ضابطة ، ومن ثمّ عمد إلى حرمان مجموعة الطبقة العليا من البناء من الطعام لمدة كافية لاستجرار الجوع الشديد . وراقب فئران الطبقة السفلى ليرى إذا كانت الفئران قد بدأت تأكل المزيد في الحين الذي كانت زميلاتها في الطبقة العليا جوعى إنما غير قادرة على الأكل . وقد حدث هذا بالضبط ، سبعاً وعشرين مرة من ثلاثين .

أدار سبيرانسكي التجربة بكاملها مرة ثانية مع مجموعة أخرى من الفئران ، وهو يقارن زيادة الوزن عند مجموعة الطبقة السفلى أثناء فترات إطعام مجموعة الطبقة الرابعة بصورة طبيعية أو تجويعها . بعد اثنتين وعشرين محاولة وجد النتائج في كل مرة كما تنبأ بها : تعمد الفئران إلى أكل المزيد حين يتم تجويع زميلاتها البعيدات ، كما لو كانت تحس بجوعها وتحاول أن تعوّض عنه . وقد كانت تُبَث معلومات عن طبيعة خاصة جداً وترتبط مباشرة بالبقاء على قيد الحياة على مسافة طويلة بما يكفي لاستبعاد أي طريق حسي معروف طلب سبيرانسكي من زميل في معهد لينغراد الطبي ، الطالب المتخرج إيك سابار ماميدوف أن يعيد تجربته دون أن يخبره عن القصد من ذلك . كانت نتائج سابار ماميدوف إحصائياً أكثر مغزى حتى من نتائج سبيرانسكي. لقد تأسست ظاهرة «بث المعلومات بصورة فوق عادية» ـ قال سبيرانسكي ـ الذي قدّم من التفاصيل ما يكفي لتمكين أي شخص من إعادة تجربته . أو لعلي أقول قدّم كافة التفاصيل ما عدا واحدة ، سأذكرها حالاً .

يرتبط عمل سبيرانسكي مباشرة مع عمل فاسيليف الذي يبدو أنه كرس جل وقته لدراسة الطرق التي يؤثر فيها البشر على الحيوانات ، بصورة طبيعية أو خارقية . وجد أن من الممكن التأثير في حركات عضلات الحيوان على مسافة قريبة عن طريق الفعل المباشر للدوافع الكهربية من العضلات البشرية المتقلصة . قبل

وفاة فاسيلييف بفترة قصيرة عام ١٩٦٦ ، اشتغل وسبيرانسكي سوية كي يتم التأكد من قدرتها على التأثير في النشاط العضلي للفئران عن طريق حالتها العقلية ، سواء كانت هادئة (في حالة تنبه كوليني) أو متوترة (في حالة تنبه ادرينالي) . لم تكن النتائج ذات مغزى ، لكن سبيرانسكي حاول ثانية عام

١٩٦٩ ، مستخدماً الأولاد بين السابعة والتاسعة كزملاء قائمين على التجارب . يبدو أن ذلك كان مجدياً إلى حد ما ، إذ استطاع بعض الأولاد حمل الحيوانات على تسريع أو خفض فعالية الجري عندهم . هذه المرة ليس عن طريق أي عمل عضلي كهربي من جانب الأولاد ، بل عن طريق التخاطر .

في سلسلة أخرى من التجارب ، نشرت عام ١٩٧٤ في كتاب سوفييتي عن الباثولوجيا (علم الأمراض) ، بلّغ سبيرانسكي عن زيادة في وزن الغدد الكظرية عند الفئران في الحين الذي تعرضت فيه زميلاتها من مستعمرتها السابقة للشدة النفسية من مسافة . وقد لاحظ أن الأثر لم يحدث سوى بين مجموعات فئران عاشت سوية في السابق لمدة لا تقل عن ثلاثة أيام ، بعد إحدى وعشرين تجربة حسب أنه قد أسس «بث المعلومات بطريقة فوق عادية» «كأحدى الظواهر على التكيف الحيواني (الوقائي) مع التأثير المحتمل لعوامل ضارة جداً بالصحة» .

التفصيل المفقود الذي ذكرت أعلاه ، وربما كان الحاسم ، ذكره عالم من أوربا الشرقية ناقشت وإياه عمل سبيرانسكي عام ١٩٨٤ .

«لا تكون هذه التجارب مجدية» قال لي «إلا إذا أجريتها في يوم واحد فقط ومن ثمَّ تدع الحيوانات تهدأ لاسبوع أو اثنين قبل أن تحاول تجربة أخرى . فأنت بحاجة لأن تفاجئها» .

في البداية ، لم أفهم ، يعود ذلك في جزء منه إلى وجود نصف لغة مشتركة بيننا . لكن في وقت تال من ذلك اليوم بعد استشارة المعاجم ، سقطت قطعة النقود وشعرت فجأة أن دليلاً هاماً قد أعطي لي على لغز السبب الكامن وراء عمل

التخاطر كما يتم في الحياة الواقعية ، والسبب الذي يقود في الغالب إلى عدم تقبله الحدوث في التجارب المخبرية .

كان الدليل المفردة الوحيدة «فجأة» .

فئران سبيرانسكي ، وقد أخذت على حين غرّة عند خبرتها الأولى في الشدة ، الجوع أو أشكال التأزم الأخرى عمدت إلى إرسال الرسالة وقامت زميلاتهن البعيدات بالتقاطها في شكل قطعة معلومات منفردة ، مثل «النجدة» ! لو أعيد دافع الشدة مرات كثيرة لأصبحت الاستجابة أضعف على نحو مطرد . إن تتعرض (أنت) للجوع أو الشدة كل يوم ، تتعايش مع هذا الواقع . هذا هو الاشراط البافلوفي بطريقة معكوسة : كلما ازدادات مرات حدوث الدافع ـ قلت الاستجابة .

ينسجم هذا تماماً وأحد أهم الاكتشافات التي سبق التوصل إليها في مخبر راين في جامعة ديوك . وقد حصل ذلك على يد إحدى طالبات الدكتوراه لديه ، بيتي همفري (فيما بعد بيتي نيكول) . التي ذكرتها من قبل كمراسلة مشاركة في حادثة بوسطن عام ١٩٤٠ . بعد أن رسمت نتيجة سلسلة طويلة من تجارب تخمين البطاقات في شكل مخطط ، وجدت أن الأشخاص المدروسين كانوا يجنحون نحو نتائج جيدة في بداية التجربة وفي نهايتها ، في حين تنخفض النتائج في المنتصف إلى مستوى المصادفة . وقد تمخض الرسم البياني عن منحى U ، وأصبح يعرف بالأثر الانحداري . وسرعان ما وجد راين ، حين ألقى نظرة على سجلاته الأولى ، أنه كان فاعلاً لبعض الوقت دون أن يلحظه أحد .

وهكذا فهناك على الأقل تأثيران يجب أخذهما بعين الاعتبار في أي نوع من التجارب المخبرية التي تتضمن العقل : أثر المجرب ، الذي ذكرته سابقاً ، وأثر المجرب عليه ، حيث تعتمد النتائج في ذلك على كيفية شعور الشخص (أو الفأر) موضع التجربة آنئذ . هناك تأثير آخر يمكن أن يحدد بشكل جيد درجة الاثنين

الآخرين . هذا ما أدعوه ، بالأثر الوطني ، الذي يوازي فيه حدوث ظواهر psi في أي بلد معطى مستوى الاعتقاد العام في احتمالها .

في كتاب سابق ، أوحيت أن أكثر بلدان العالم توجهاً نفسانياً هي البرازيل ، حيث عشت لمدة أربعة عشر عاماً . هناك ، كما وجدت ، أي شخص لا يؤمن بالتقمص ، الأشباح المصوّتة وإلهات الأرواح الإفريقية الغريبة يعدُّ شاذاً نوعاً ما . أكد لي الزوار المشككون أن هذا يعود إلى نسبة الأمية العالية ومستوى التطور الاجتماعي المتدني بوجه عام .

عجيب . يوحي البحث اللاحق ، القائم على قدر كبير من العينات ، العائد لعالم النفس البروفيسور إيرلاندور هارالدسون من جامعة آيسلاند أن الشرف الذي أعطيته للبرازيل يجب أن ينسب إلى بلاده ، إحدى أعرق البلدان في أوربا وأعلاها مستوى معيشة في العالم ـ حيث نسبة الأمية صفر .

لا بد أن البلدان السلافية تتبع مباشرة وهي : بلغاريا ، بولندة ، تشيكوسلوفاكيا وذلك الجزء من الاتحاد السوفياتي الذي كان في السابق روسيا . في كل من هذه البلدان ، حسب معرفتي من الخبرة المباشرة ، هناك قبول واسع لما ندعوه الظواهر النفسية ، رغم المواقف المختلطة في الدوائر هناك عن كيفية دراستها وتعميمها . بالمقارنة هي منخفضة جداً في رومانيا ، هنغاريا والمانيا الشرقية .

في تشيكوسلوفاكيا يعتبر التنويم المغناطيسي العلاج القياسي للأمراض النفسانية ، في حين أنه على الجانب الآخر من الدانوب في هنغاريا ، يعتبر التنويم المغناطيسي عملاً لا شرعياً . مثل هذين الموقفين الوطنيين المتعاكسين تجاه العقل لهما أثرهما على التجمعات المنفردة . انطباعي هو أن الشعوب السلافية في موقع متقدم جداً في هذا المجال بقبولها لقوى العقل الأيمن . كم عدد البلدان التي يتوفر فيها اليوم هياكل للوحي تديرها الدولة إضافة إلى معاهد باراسيكولوجية تدعمها الدولة ؟ البلد الوحيد الذي أعرف هو بلغاريا ، التي يتوفر فيها الاثنان . خلال اسبوع قضيته هناك لم أصادف أي بلغاري لم يذهب لمقابلة فانغا ديميتروفا ، بصّارة

بتريك الكفيفة التي تعطي زائريها وصفاً لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ؛ أو على الأقل عرفت ممن فعل .

إذا ما منحت جائزة نوبل عن اكتشاف الدور الذي يلعبه التخاطر في النشوء والارتقاء ، فإن ظناً يداخلني أنها ستمنح إلى سلافي ، وآمل أن يقدم الفائز الثناء إلى أول عالم دولي المكانة يوحي أن عامل psi فاعل في البيولوجيا .

طرحت مثل هذه الفكرة عام ١٨٧٠ على يد من ليس بأقل من أحد المؤلفين المشاركين في ما يستحق من فضل إما لتوصله إلى استنتاجاته قبل داروين بزمن طويل أو لتنويهه بمثالب نظريته هو .

في كتابه (مساهمات في نظرية الانتخاب الطبيعي) كرس والاس فصلاً كاملاً لبعض تلك «الظواهر المتبقية» التي لم يكن بالإمكان تعليلها عن طريق النظرية التي قدمها بالاشتراك مع داروين عام ١٨٥٨ . وتشمل هذه توزع الشعر على جسم الإنسان ، اكتمال اليدين والقدمين والجهاز الصوتي ، وخاصة حجم وتطور الدماغ في بواكيره . وقد أوقعه في حيرة أن دماغ الإنسان البدائي كان يفوق بكثير حاجات ذلك الزمان «لم يكن الانتخاب الطبيعي ليهب الإنسان المتوحش سوى دماغ أسمى بقليل من دماغ القرد» ، كتب ، «بينما نراه في الواقع يمتلك دماغاً أدنى من دماغ الفيلسوف بقليل» . خلص إلى :

إن الاستدلال الذي أستقيه من هذه الطائفة من الظواهر هو أن عقلاً أسمى قد أرشد التطور البشري في وجهة محددة ونحو غرض خاص ، تماماً كما يرشد الإنسان تطور كثير من الأشكال الحيوانية والنباتية . . . هناك قانون أكثر جوهرية وعمومية يكمن تحت قانون «الانتخاب الطبيعي» .

وإذ كان يكتب قبل حوالي عشر سنوات من ميلاد آينشتاين وقبل أن يصبح الحديث عن الكون على أنه «فكرة عظمى» موضة سائدة ، فقد كان لوالاس بعض التخمينات التي تسترعي الاهتمام عن طبيعة المادة ، الطاقة والإرادة البشرية . «المادة» كتب ، «هي في الأساس قوة ، ولا شيء سوى القوة» ، وقد كان واضحاً

أن بعضاً من قوة على الأقل قد نشأ في عقل الإنسان . وجادل :

لذلك ، إذا ما اقتفينا أثر قوة ما ، مهما كانت صغيرة ، إلى منشأ ما في إراداتنا، في الوقت الذي لانملك معرفة عن أي سبب أولي آخر للقوة ، فإن النتيجة المستخلصة ، وهي أن كل قوة هي قوة إرادة ، لا تبدو بعيدة الاحتمال : وبالتالي أن كامل الكون لا يعتمد فقط على ـ بل هو بالفعل إرادة عقل أعلى أو إرادة عقل واحد أسمى .

أما بالنسبة للغز السبب الذي يجعل الكائنات الحية واعية ، برغم تكونها من العناصر نفسها التي تتكون منها الأشياء الجامدة فقد ارتأى بعد مجادلة مطولة أنه «إما أن تكون كل المواد واعية، أو أن يكون الوعي شيء متميز عن المادة، وفي الحالة الأخيرة فإن وجوده في الأشكال المادية هو برهان على وجود الكائنات الواعية خارج نطاق ، وبشكل مستقل عن ، ماندعوه بالمادة» .

ولنتذكر أن والاس كان أحد المسؤولين عن الثورة العظمى في التاريخ البيولوجي، وقد اعتبرت في أوانها ضربة قاتلة أصابت الإيمان بالترتيب الإلهي و«الخلقي» للطبيعة. ومع ذلك فقد اعتقد أن «الإنسان ثنائية» مؤلفة من شكل روحاني منظم ، انبثق بشكل توافقي مع وتخلل الجسد المادي» .

على مستوى أقرب إلى أرضية الواقع ، كانت هنالك ظاهرة طبيعية وحيدة ضللت والاس وهي ظاهرة التنكر البيئي ، محاكاة أحد الأجناس لغيره حفظاً لبقائه . في تطوافه حول العالم ، لاحظ عدة أمثلة ، لحشرات عادة تقلد ضواريها ، أوضحها كان مثال اليسروع الذي أفلح في الظهور ، بمظهر الأفعى السامة . يلاحظ ستيفن بلاك أن بعض الحشرات والطيور لا تموّه نفسها فحسب بل تنوم ذاتها مغناطيسياً كذلك توصلاً إلى الإغماء التخشبي . كأمثلة على ذلك يورد السرعوف «حشرة عصويّة»(من عصا)، وطائر الواق المستنقعي الذي يقف بجانب أجمة قصب ويتمايل معها في الريح بشكل لا يرى حتى من مسافة قريبة حتى من قبل كلب صيد مدرّب . ثم هنالك الذبابة الضوئية ، التي يدعوها بلاك «قطعة نحتية

ملونة مذهلة» . يبلغ طولها حوالي ٨٥ ملم ، يشغل رأسها ثلث طولها ، ومعظمه أجوف . ما يذهل هو الطريقة التي تطور فيها الرأسَ إلى نموذج مصغر تام لرأس حيوان آخر يفوق حجمها بعشرين إلى ثلاثين مرة ، وهو القاطور (تمساح أميركا) . لها زوج من الأعين الجاحظة المزيفة إضافة إلى عينيها الحقيقيتين ، حتى أن هناك كذلك علامة بيضاء صغيرة تحاكي الضوء المنعكس من عين حقيقية . الفكان «ينفتحان» ليكشفا عن صف من الأسنان البيضاء المزيفة التي ، كما يلاحظ بلاك ، «لم تظهر ملونة فقط بل على شكل نقشٍ ضئيل البروز» .

تخدع هذه الحشرة الصغيرة ، على وجه الافتراض ، الطيور الكواسر بشكل يخالونها قاطوراً ، ويعتقد أن أدمغة الطيور أكثر استقبالاً لمعلومات الشكل واللون منها لمعلومات الحجم . هذه ليست محاكاة لضاريها فقط بل لضاري ضاريها . كذلك يحسن القول إنها تطور مظهرها شبيه القاطور كي تبعد الطيور خوفاً منها . ولم تعمل هي كل ذلك بنفسها . لا يمكن أن يكون لديها أية فكرة عن ماهية القاطور الفعلية . ومع ذلك فالحقيقة القائمة هي أن نسج جسدها قد أخذت شكلها عن طريق المعلومات التي منشؤها أجناس بعيدة العلاقة كلية وتمّ استقبالها من قبل مخلوق لا يمكن القول إن له عقلاً واعياً . إن كانت الذبابات الضوئية بالكياسة المطلوبة التي تمكنها من معرفة كيفية التشبه بالقواطير ، فإن الطيور يجب أن تكون قادرة على الاستنتاج ان الحشرة إنما كانت تحاول خداعها ولسوف تزدردها .

هذا الوحش المصغر المخادع يبين إلى أي مدى يمكن تلقي المعلومات على مستوى اللا وعي وترجمتها إلى تبدلات رئيسة في الجسد المادي . هناك الكثير من الأمثلة الأخرى ، بعضها ينمّ عن براعة مدهشة . تعمل فراشات الكاليما على أن تبدو بشكل الأوراق الساقطة التي تحط عليها موائمة التلون التنكري مع الفصول حتى أنها تتجلى كذلك في شكل بقع مقلدة . الفطر على الأوراق . هناك عثة أمريكية تفلح في تغيير كل من شكلها ولونها وتمثل من براز طير . بعض نباتات

الأركيديا تحمل ذكور النحل على نشر غبار طلعها عن طريق تقديم نحلة أنثى اصطناعية لهم . الخنافس الذكرية الطائرة تلتقط إشارات ضوئية من الحباحب الماكرة التي تقنعها بالهبوط وهي تأمل في مكان للتزاوج ، فتقع فريستها عوضاً عن ذلك .

كما كان برتراند راسل سيقول ، ما إن نصف كيفية حصول التنكر البيئي في الطبيعة وتحت أي ظروف ، حتى نكون قد قلنا كل شيء . لقد درس بشكل جيد وفهم بشكل جيد ، وقيمته الواضحة ابتغاء البقاء تعطي دعماً قوياً لنظرية والاس / داروين في الانتخاب الطبيعي . الكائنات الحية تقلّد كي تعيش . لكن كيف بحق السماء تفعل ذلك ؟ ما هي الآلية التي يتم بوساطتها ترجمة معلومة إلى تبدل يطرأ على خلية ما في الجسم ؟ ستيفن بلاك حذر جداً بصدد هذه المسألة الحاسمة . «إن النظام السيبرنتيكي هنا لم تتم البرهنة عليه أبداً» . يقول . يصف مظهر شبيه القاطور عند الذبابة المضيئة على أنه «نتاج (المجال المعلوماتي) داخل نظام بيولوجي مستقى من لا احتمالية شكل وعلامات رأس القاطور» . هذا وصف حسن ، لكنه لا يقدم تعليلاً .

في مطلع هذا الكتاب ، أوردت بعض الأمثلة على كيفية تمكن البشر تحت إيحاء التنويم المغناطيسي من تغيير مظهر جلودهم ، نحو الأحسن أم الأسوأ . عندما تكون الشروط ملائمة يمكن تحول احمرار الجلد السمكي إلى جلد جميل جديد ، ومنع الحروق من تشكيل البثور والأذية ، وملاشاة الثآليل . يمكن إحداث السمات (ستيغماتا) في الجسم بالخطأ أم عن عمد ، على شكل خطوط مستقيمة نازفة ، لطخ تماثل شكل قطعة نقود «حامية» موضوعة على الجلد ، أو علامات تشابه تلك التي يتوقع حدوثها للمصلوب . في كل من الحالات أمكن للمعلومات ، صحيحة كانت أم خاطئة ، أن تحرك المادة الحية ، سواء كان منشأ المعلومات داخل أو خارج عقل الشخص المدروس . يمكن إيراد القول نفسه عن ظواهر التقليد في الطبيعة . إن حركة المادة ، حية كانت أم لم تكن ، عن طريق

المعلومات دون أية آلية جسدية معروفة هي تعريف دقيق أيضاً للبسايكوكينيسيس (الحركة النفسانية) .

قبل متابعة مضامين هذا النهج في التفكير ، سألفت النظر إلى جانب آخر من التنكر البيئي في الطبيعة ، وفي الواقع هو الأوضح . وهو دوماً هادف ومتعلق بالبقاء . لا تقلد الحشرات لحاء الشجر أو براز الطيور للمتعة ، أو العرض أمام كاميرات تلفزيونية ، فهي تفعل ذلك حفاظاً على حياتها . إنه ضروري .

ذات الشيء ، كما بينت ، ينطبق على التخاطر في أكثر أشكاله المعروفة - انتقال المعلومات في وقت التأزم . فهو يحدث لأنه أيضاً ضروري . لا تتوفر طريقة أخرى لإيصال المعلومات .

عندما يقوم آينشتاين ما في الباراسيكولوجيا مستقبلاً باستنباط نظرية المجال الموحد في التنويم المغناطيسي، التخاطر والحركة النفسانية ، سيكون من الممكن ترجمة الأفكار إلى فعل جسدي عند الطلب ، وقد سبق حدوث ذلك إلى حد ضئيل. أنا لست على وشك طرح مثل هذه النظرية ، بل مجرد لفت الانتباه إلى وجوب توفر واحدة .

بعد أن ناقشت ظاهرتي التنويم المغناطسي والتخاطر ، سأنتقل الآن إلى البسايكوكينيسيس (من الآن فصاعداً ستكتبPK). وهذه بحد ذاتها لا احتمالية تجعلني أقدمها عن طريق الإجابة على الأسئلة التي كانت تطرح عليَّ مراراً بهذا الصدد :

هل هي تحدث فعلاً ؟ أجل . للعقل قوة حقيقية ، كما عبّر عن ذلك ج.ب. راين عام ١٩٤٣ .

كان يعرف عما يتحدث ، وكانت لديه عشر سنوات من الدراسات المخبرية للبرهنة على ذلك. ألا تعود في جهلها إلى المخادعة؟ لا . لست أعتقد ذلك، ولا أي شخص قضى وقتاً في دراستها بشكل صحيح . جلها يمكن محاكاته بالمخادعة . إنما ليس كلها .

كيف لك أن تتيقن ؟ الدليل عليها فيه اتساق كلي ، سواء جاء من الفائزين بجائزة نوبل أو الفلاحين الأميين . الدليل الآخر هو أنني شهدتها بنفسي في مناسبات عدة .

هل هناك من دليل علمي عليها ؟ أجل ، رفوف من الأدلة . لم يلق الدليل قبولاً جماعياً ، إنما لا يماثل هذا القول أن لا دليل عليها .

هل يمكن إحداثها عند الطلب ؟ بالتأكيد ، في ظل الشروط الملائمة ، رغم أن البرهنة العيانية عليها أشق مما هو الحال في التخاطر .

هل هناك تعليل لها ؟ ليس بعد . ما نزال في مرحلة الوصف ، وهذا يجب ألا يبعدنا عن دراستها وملاحظة طريقة سلوكها . هناك عدد كبير من الظواهر التي ألفناها بصورة أكبر ، مثل الجاذبية ، والتي لا نملك تعليلاً لها كذلك .

هل هناك من تعليل ممكن لـPK؟ يجب إيجاده. إن كانت تحدث في الطبيعة فهي طبيعية . لقد تم تمهيد الأرض من قبل في كل من العلوم-الفيزيائية والعقلية لإقامة فرضيات قابلة للتجريب في نهاية الأمر . يقبل بعض الفيزيائيين المحدثين حقيقة أنها ليست «محظورة» ، وهي بالتالي ممكنة . في مقال يحمل العنوان المدهش «قالب S تعرج فايمان وارتباط آينشتاين» يقول البروفيسور أوليفيه كوستادي بوريغار إن الـ P K وآثار الـ psi الأخرى قابلة للتنبؤ في الواقع . «من الناحية المنطقية ، يجب أن تبرز هذه الظواهر ، لا أقل من تموجات دينامية حرارية متدرجة ـ وهي في الواقع تفعل ذلك» .

في الجانب النفساني ، لاحظ المحلل النفساني د. جان إهرنوالد التناظر الدقيق بين العوز الوظيفي لتناذر الانقلاب الهستيري (الخدار ، العمى ، الشلل والبكم دون سبب عضوي) وبين فرط النشاط في تناذر psi (التخاطر ، الاستبصار ، استباق الحوادث ، P K) . كل مجموعة أعراض هي الصورة العاكسة للأخرى . فضلاً عن ذلك ، يبيّن أن وظائف psi رغم طبيعتها النزوية ، تحكمها نفس القوانين التي تنطبق على الأحلام ، أعراض العصاب ، والعمليات

اللاواعية بصورة عامة . «بإيجاز» ، يقول «هي تخضع لمبادىء الأحداث العقلية (السايكو دايناميك) المتأسسة» .

أي فائدة ترجى منها ، على أية حال ؟ المجال الذي سيثبت فيه نفعها الأكبر هو مجال الشفاء ، حالما يتم التسليم بأن كافة أضراب المعالجين يستخدمونها من قبل ، عن وعي أم بدون وعي .

وما هي علاقة الأرواح بها ؟ لست أدري .

بعض التموجات المتدرجة

«خلال اثنتي عشرة سنة من التجوال الاستوائي بين عامي ١٨٤٨ و ١٨٦٢ ، أمضيتها في دراسة التاريخ الطبيعي ، سمعت أحياناً عن الظواهر الغريبة التي قيل إنها تحدث في أمريكا وأوربا تحت التسميات العامة «إدارة الطاولات» و «دقات الأرواح» . وإذ كنت ، من خلال معرفتي بالمسمرية ، على علم بوجود غوامض تكتنف العقل البشري وقد تجاهلها العلم الحديث لأنه لم يجد لها تعليلاً ، فقد قررت أن أغتنم أول فرصة عند عودتي إلى الوطن للتحقق من هذه المسائل .»

وقد تحقق منها بالفعل ، وكثير من الذين أعجبوا بعمله كعالم في التاريخ الطبيعي ودّوا لو لم يفعل . ألفريد راسل والاس كان سيعتبر اليوم أعظم بكثير مما هو في الواقع لو لم يصبح من بين أشياء أخرى ، روحانياً ؛ ويزعم أنه كان حاضراً عندما تجسدت أمامه سبع وثلاثون زهرة من الهواء الشفاف ، وأنه ساعد في جعل أثاث منزله يرتفع في الهواء . في رأي الكثيرين ، أمضى النصف الثاني من حياته المديدة وهو يبذل جهده ليتجرد من السمعة التي لحقت به حينما كان قد بلغ الخامسة والأربعين وفي منتصفها بالضبط .

أنا معني هنا فقط ، مع ذلك ، بما كان والاس يفعله عام ١٨٦٥ ، حيث تشير الدلائل كلها آنئذ إلى أنه كان يملك بشكل كامل كلا دماغيه . كان هذا قبل

أربع سنوات من إعلانه تحوله إلى الروحانية ، التي جاءته ، كما كان يشدد «عن طريق قوة الأدلة» . كما قلت سابقاً ، يمكن أن نعارض بشكل معقول الاستنتاج الذي استخلصه والاس وكثيرون غيره من الدفاتح التي وقعت تحت ملاحظتهم ، لكن لاحق لدينا في رفض الوقائع ذاتها . في حالة والاس ، الوقائع التي أعلن عنها عند أول تفحص لـ «الغوامض المرتبطة بالعقل البشري» تتطابق إلى حد بعيد حتى في أدق تفاصيلها مع الوقائع التي شهدتها بنفسي والتي لا أتردد في إيرادها هاهنا .

عام ١٨٦٥ ، اعتبر والاس نفسه «مادياً كاملاً وراسخاً بشكل لم أستطع آنئذ أن أجد مكاناً في عقلي لمفهوم الوجود الروحاني ، أو أية قوى أخرى في الكون خلاف المادة والقوة . الوقائع ، مع ذلك ، هي أشياء عنيدة . . . الوقائع تقهرني . فقد أرغمني على قبولها كوقائع قبل أن أقبل التعليل الروحاني لها بزمن .» .

هاهنا ، إذن الوقائع التي لاحظها وفتذاك إنسان له خبرته الطويلة المستقاة من الملاحظة الدقيقة للمسلك الذي تسلكه الطبيعة . إن التعليل الذي ترغمنا الوقائع على قبوله ليس بالضرورة ذاك الذي وقع عليه اختياره .

بتاريخ ٢٢ تموز عام ١٨٦٥ ، زار والاس صديقاً له ، «شكاكاً ، رجل علم ، ومحامياً» وعائلته :

بعد جلوسنا إلى طاولة عظيمة الحجم مستديرة ، وأيدينا عليها ، كانت تبدأ بعد فترة وجيزة حركات خفيفة ـ ليس «دوراناً» أو «ميلاناً» في الأغلب ـ بل حركة خفيفة متقطعة ، كخطوات ، كانت تأتي بالطاولة بعد فترة عبر الغرفة . كذلك كانت تسمع أصوات ضربات خفيفة لكنها واضحة . الملاحظات التالية التي دونتها في ذلك الوقت كانت تهدف إلى وصف ما حدث بالضبط :

جلست مع صديقي ، وزوجته ، وابنتيه ، إلى طالوة لو [1] كبيرة ، في

---

(١) اللو : نوع قديم من لعب الورق (المترجم)

النهار ، في غضون نصف ساعة تقريباً شعرنا ببعض الحركات الواهنة . ثم ازدادت بالتدريج ؛ أصبحت النقرات واضحة جداً ، وأخذت الطاولة تتحرك بشكل ملحوظ ، مرغمة إيانا جميعاً على نقل كراسينا . ثم بدأت حركة اهتزازية غريبة في الطاولة تشابه تقريباً رعشة حيوان حي . كنت أشعر بها حتى مرفقي . وقد تكررت هذه الظواهر على مدى ساعتين . عند المحاولة فيما بعد : ألفينا أنه ليس بالإمكان تحريك الطاولة إرادياً بنفس الطريقة دون بذل جهد كبير ، ولم يكن بوسعنا اكتشاف طريقة ممكنة لإحداث النقرات حينما كانت أيدينا على الطاولة .

عقد والاس وصديقه المحامي حوالي اثنتي عشرة جلسة أخرى عند الطاولة . لم تكن كلها بإثارة ماسيتلو وصفه ، لكنها ذات أهمية عظيمة كأمثلة على الحركة النفسانية (PK) التافهة والبدائية ، وكما هو الحال مع التخاطر فإن أفضل تقرّب إلى موضوع معقد هو البدء بأبسط أشكاله ومن ثمّ ملاحظة الكيفية التي بها يتطور .

هذا ما فعله والاس . وقد تضمنت إحدى تجاربه العفوية الأولى الطلب إلى زملائه الجالسين أن يغادروا مكانهم عند الطاولة واحداً واحداً كل فترة ، ليتأكد من استمرار النقرات والحركات مع وجود أقل من خمسة أشخاص . وقد فعلوا ذلك ، والقوة تتناقص ، لكن «حالما انسحب آخر الأشخاص تاركاً إياي لوحدي عند الطاولة ، سُمعت نقرتان أو ضربتان غير واضحتين ، كضربة قبضة اليد على قائمة الطاولة أو أسفل قائمتها ، مما جعلني أشعر بالاهتزاز وأسمعه . ما كان أحد ليفعل ذلك سواي ، وبالتأكيد لم يكن أنا من فعل» .

وقد لاحظ أن مصدر النقرات كان تحت سطح الطاولة ، حتى عندما كانت كل الأيدي ظاهرة للعيان . (يمكنك إحداث ضجة مؤثرة بوضعك راحتيك على الطاولة وطقطقتك بظفري الابهامين معاً ، لكن هذا لا يعطي صوتاً شبيهاً بالقبضة .) أما بالنسبة لكيفية حركة الطاولة ، فقد وجد أن ذلك كان دوماً بشكل قوسي أو متعرج . وقد أشار إلى أنه كان من السهولة بمكان أن يحرك أحد

الحاضرين الطاولة ، «لكن تجاربنا أظهرت أن هذا لا يمكن أن تكون عليه الحال دائماً ، وليس لدينا الحق بالتالي أن نستخلص أن الحال كانت كذلك مطلقاً .» ثم استخلص : «هذه التجارب أقنعتني أن هناك قوة مجهولة انبثقت عن أجسام عدد من الأشخاص يربط بينهم جلوسهم حول طاولة وكافة أيديهم عليها .»

في أيلول عام ١٨٦٥ ، يمّم والاس شطر وسيطة عمومية ، السيدة مارشال ، وشهد عدداً من الظواهر في حضرتها . وسواء كانت هذه حقيقية أم لا ، فقد شجعته على عقد جلسات أخرى في بيته مع أصدقائه وأقربائه ، وملاحظة ما كان يحدث عن كثب . كانت جموعته قادرة على إحداث تنويعة واسعة من الضجيج . «عندما تسمع هذه الأصوات تكراراً في حجرة جيدة الإضاءة على طاولة أحدنا ، وكل الأيدي في الغرفة ظاهرة للعيان ، فإن التفسيرات العادية لذلك ليست ممكنة التأييد إطلاقاً» كتب . وقد كان أكثر التفسيرات العادية شيوعاً وقتذاك «فاعلية عضلية لا واعية» ، كما ارتأى فارادي عام ١٨٥٢ في تعليله لكافة ظواهر ميلان الطاولات ، فرقعة المفاصل التي ، كما أشار والاس ، من العسير أن تعلل أصوات «النقر ، الطرق ، الضرب ، الصفع ، الخدش ، الحك» ، وبعضها يؤدي حركات نظامية (كما في توقيت الأداء الموسيقي بالأيدي) عند صفير لحن موسيقى . كما لا يعلل أيٌّ من الشروح الحادثة التالية ، وهي مماثلة جداً لواحدة شهدتها بنفسي :

جلسنا حول طاولة عمل صغيرة جناحها المتحرك بعرض حوالي عشرين بوصة ، ووضعنا أيدينا جميعاً بجانب بعضها بالقرب من المركز . بعد برهة كانت الطاولة تأخذ بالتأرجح من جانب إلى آخر . ومن ثمَّ تظهر وقد أخذت توازن نفسها ، ثم ترتفع عمودياً من ستة بوصات إلى قدم ، وتبقى معلقة في كثير من الأحيان لمدة خمس عشرة أو عشرين ثانية . خلال هذا الوقت يمكن لأي واحد أو اثنين من أفراد المجموعة ضربها أو الضغط عليها ، وهي تقاوم قوة كبيرة جداً .

لاستبعاد أية إمكانية عمل خفي لقدم أي من أصدقائه ، أعد والاس وقتئذ

طاولته قبل الجلسة بمدّة لرقائق طولانية من الورق بين القوائم ، كي لا يتمكن أحد من رفعها بشكل طبيعي بواسطة قدم أو ركبة دون تمزيق الورقة . «ارتفعت الطاولة كما في السابق ، وقاومت الضغط إلى أسفل ، كما لو كانت موضوعة على ظهر حيوان ، ثم هبطت إلى الأرض ، وفي فترة وجيزة ارتفعت ثانية ، ومن ثمَّ هوت فجأة للأسفل .» في وقت تالٍ ، أقام قفصاً حول الطاولة ، بشكل استحال معه رفعها بإصبع قدم مستترة . «هذا الجهاز لم يحل دون حركة الطاولة إلى أعلى .»

شهد والاس عدة ظواهر مثيرة للفضول في بيته ، في إحدى المرات ، تحركت طاولة صغيرة نحو طاولة أكبر منها ، كان يجلس شخص إليها ، «كما لو دخلت تدريجياً ضمن مجال قوة جذب عظمى» . كذلك شاهد كرسياً ضخماً ينزلق على امتداد أرض الغرفة ، كما حدث بالضبط أثناء حادثة الشبح المصوّت في اينفيلد عام ١٩٧٧ التي شهدتها أنا .

كان ردّ فعله الأولي عزو هذه الفاعلية ليس إلى الأرواح ، بل إلى «قوة جديدة مجهولة فاعلة هنا» . ولم يحدث إلا لاحقاً ، ويعود ذلك جزئياً إلى «رسائل» تلقاها عن طريق طلبه إلى الطاولة أن تضرب الأرض عدداً ملائماً من المرات تقابل كل حرف من حروف الأبجدية ، أن شعر أنه مرغم على افتراض وجود قوة خارجية ، أو روح . اليوم ، بفضل الإدراك اللاحق .[1] ؛ يمكن تبين أن حقيقة نقر بعض الكلمات بصورة راجعة هي ذات دلالة كبيرة على عمل عقل لا واعٍ ، إذ من المعروف جيداً أن الرسائل المكتوبة بتلقائية غالباً ما تظهر على الورق في شكل «كتابة عاكسة» (إذ أنه أسهل في العادة ليمن الأيدي أن يكتبوا باليد اليسرى بصورة راجعة من أن يكتبوا للأمام . جرب ذلك وتأكد .)

ليس من المستغرب أن ما يدعوه علماء النفس اليوم «الفاعلية المغايرة للأنا» من النوع الذي ورد وصفه أعلاه قد نظر إليها آنذاك على أنها من عمل الأرواح .

---

(١) ادراك طبيعة الحادثة بعد وقوعها ـ (المترجم)

ظهرت الروحانية إلى الوجود بعد اندلاع موجة القرع في بيت عائلة فوكس في هايد سفيل ، نيويورك ، عام ١٨٤٨ ، وأصبح التخاطب مع العالم اللامرئي هواية شعبية في كافة أرجاء الولايات المتحدة وأوربا . كانت تعقد جلسات تحضير الأرواح وفيها تميل الطاولات وترتفع في الهواء ويتم استلام رسائل بواسطة أنظمة دق شيفرية شتى ، وبواسطة الكتابة التلقائية ، أو بنماذج لوحة الأويجا(٢) الأصلية الحديثة . وقد افترض أن الرسائل صادرة عن أرواح الموتى لسببين وجيهين : قالت الرسائل ذاتها هذا الأمر ، ولم يكن هناك مصدر بديل واضح في عصر لم يعرف فيه شيء تقريباً بصورة عامة عن التخاطر أو العقل اللاواعي .

فضلاً عن ذلك ، لم تكن كافة الرسائل هراء سخيفاً لا معنى له ، كما زعم مراراً . في باريس كتب معلم مدرسة يدعى ريفاي عدة كتب بمساعدة وسطاء الكتابة التلقائية وأسس حركة جديدة ، الإرواحية ، بموجب الاسم المستعار (الذي أملته الأرواح) ، آلان كارديك . وهي ما تزال مزدهرة إلى يومنا هذا ، بصورة رئيسية في أمريكا اللاتينية والفيليبين كفلسفة عملية جداً وديانه مسيحية لا تساوم ، رغم أنها مبنية بشكل وطيد على افتراضات استمرارية الحياة بعد الموت ، التقمص ، وقانون الكارما(١) .

إن النمو السريع لحركتي الروحانية والإرواحية ، إلى جانب الظهور السريع كذلك لـ «الوسطاء» المتخصصين والمحتالين أدى بعالم العلم إلى تجاهل هذا المجال بكامله ، رافضاً الوقائع إضافة إلى تعليلاتها بصورة إجمالية . هذا هو الموقف الذي وصفه كبلر يوفا بـ «رمي الطفل وماء استحمامه معاً» ، وهذا الموقف ما يزال إلى يومنا هذا .

---

(٢) لوحة الأويجا : لوحة عليها حروف ابجدية واشارات أخرى تستعمل بمساعدة مؤثر متحرك للحصول على رسائل في جلسات تحضير الأرواح (المترجم)

(١) الكارما : العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء في طور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذي يقرر قدر المرء (في الاعتقاد البوذي) في طور تناسخي تال ـ المترجم.

أحد البحاثة الأوائل ، لمح ذلك، لمح الطفل. وقد كان الكونت آجينور دي غاسبارين (١٨١٠ ـ ٧١) ، الذي أثار حفيظة العالم (بكسر اللام) والروحاني معاً عن طريق تشديده على أن الطاولات تتمايل فعلاً ، إنما لا يعود الفضل في ذلك كله ، إن وجد ، إلى الأرواح . لقد كان هو من توصل إلى اكتشاف أن ما ندعوها الآن PKلا تحدث إلا حينما تكون عقول المعنيّين في حالة تامة الدقة ، تماماً كما عليه الحال ، كما نعلم ، مع التنويم المغناطيسى والتخاطر .

وقد أمضى مع دزينة من الأصدقاء أربعة أشهر عام ١٨٥٣ في دراسة أثر تمايل الطاولات في بيته في فالير، سويسرا، دون أن تنال الأرواح أي قسط من اهتمامه . في العام التالي ، أعلن في كتاب مطول أنه برغم أن الظاهرة حقيقية ، فهو تعود إلى قوة فيزيائية توجهها الإرادة البشرية . «لا يمكن تعليلها لا بالفعل الميكانيكي لعضلاتنا» ، كتب ، «ولا بالفعل الغامض للأرواح .»

لم يكن في الواقع تعليلها ممكنا إطلاقاً (كما لا تزال حتى اليوم) ، لكن يمكن وصفها بالتفصيل ـ وهذا ما فعله . فقد وجد أن طاولته كانت تتحرك بصورة دائرية على أرض الغرفة بينما كان يلمسها هو وأصدقائه ويدورون معها ـ وحتى عندما كانت أيديهم فوقها دون أن تمسها . وقد توصل إلى إمالة طاولته مع وجود أناس عليها ، أو حوض من الرمل زنة ٧٥ كيلو على متنها . كان بوسعه أن يحملها على الحركة عند الطلب ، إلى حد ما ، وأظهر دلائل مثيرة للاهتمام عن العلاقة بين العقل والطاولة بطلبه إلى أحدهم التفكير في عدد أحادي ، ومن ثمّ طلبه إلى الطاولة أن تنقره على الأرض . وقد أصابت الطاولة عدة مرات ، حتى عندما كان الرقم صفراً ، حيث بادرت بتحية صامتة .

كان غاسبارين على إدراك تام بنظرية «الفاعلية العضلية اللاواعية» ، لكنه لم يستطع أن يفهم كيف يعلل ذلك السباحة التامة للطاولة في الهواء حينما لم يكن أحد يمسّها إطلاقاً . لم تكن لديه فكرة عن كيفية حدوث ذلك ، «عندما تعلل لي كيف أرفع يدي ،» قال ، « أعلل لك كيف أجعل قائمة الطاولة ترتفع عن الأرض ، أنا

«أردت» أن أرفع يدي . أجل ، وكذلك أنا أردت أن أرفع قائمة الطاولة» .

كان اكتشافه الأهم يكمن في أن الآثار الفيزيائية على ارتباط وثيق بالحالة العقلية للحضور. فقد وجد مراراً أن الطاولة كانت تقوم بحركة كما لو كانت استجابة مباشرة لفكرة ، إنما عندما يكون تلقين الفكرة دون جهد ، ودون وجود أثر لإلحاح ما ، كانت الطريقة التي تحمل فيها الطاولة على الحركة تكمن في التقرب منها «ببهجة ، وخفة وحذق ، بثقة وسلطان ، لكن دون عاطفة» . بعض الناس كانوا أفضل في هذا من غيرهم ، اعترف ، رغم أنه يشدد أن لا ضرورة هناك لوجود «وسيط» خاص ، لكن لو كان الشخص متوتراً ، تعباً ، أو ليس على ما يرام فحسب ، لما تمخض الأمر عن كبير فعالية ، إن لم تنتف الفعالية على الإطلاق .

ملاحظات كهذه ذات أهمية نفسية كبرى ، ولمن سوء لحظ ، أن يقطع غاسبارين ، مثله مثل والاس عملاً واعداً كبحاثة PK جاد ويلتفت إلى أمور أخرى ، ناشراً عدة كتب في أمور السياسة والدين .

وقد تأكدت نتائجه الرئيسية مع ذلك على يد أحد أفراد مجموعته الأصلية ، البروفيسور ماك ثوري ، عالم فلك وتاريخ طبيعي في أكاديمية جنيف . في كتيب من ستين صفحة نشر عام ١٨٥٥ ، ذكر أن غاسبارين قد أرسى أسس المبادىء التالية :

١ ـ الإرادة ، في حالة معينة من حالات العضوية البشرية ، يمكن أن تؤثر من بعد على الأجسام الجامدة ، بوسائل غير الفعل العضلي .

٢ ـ تحت الظروف نفسها ، يمكن إيصال الفكرة مباشرة من فرد إلى آخر بطريقة لا واعية .

تعمق ثوري في مسألة الفاعلية العضلية اللاواعية أكثر مما فعل فارادي ، وضمّن كتابه عدة صفحات تتناول حسابات في القوة اللازمة لحمل طاولة ما على الحركة بالوسائل الطبيعية . وقد أقلع هو أيضاً عن تمايل الطاولات ولم ينشر سوى تاريخاً للساعات الجدارية .

من أوصاف غاسبارين وثوري المختصرة لتلك «الحالة المعينة» اللازمة لحمل الطاولات على الحركة ، يبرز شبه شديد بحالات الوعي المعروف الآن ارتباطها بنشاط الدماغ الأيمن ، طغيان موجة ألفا الدماغية ، التنبه الكوليني ، و«الإرادة السلبية» للتغذية الاحيائية الراجعة .

برغم زعم غاسبارين أن لا حاجة لوسيط خاص للتسبب في PK ، فإنه سرعان ما اتضح أن بعض الناس يولدون بمقدرة غير عادية عليها . فكما أن هناك أطفال عباقرة في الموسيقى أو الرياضيات مثل موتسارت وغوس كذلك كان هناك عباقرة في الـ PK كالاسكوتلاندي دانييل د. هوم والنابولية (نسبة إلى نابولي) الأميّة يوزا بيابالادينو . خضع هوم للفحص لا أقل من تسع وعشرين مرة على يد أحد علماء بريطانيا البارزين ، ويليام كروكس ، زميل الجمعية الطبية الذي شهد كمية وتنويعة وافرتين من آثار الـ PK ووصفها بالتفصيل . أما بالنسبة لبالادينو فقد خضعت للمراقبة بشكل متواصل تقريباً من عام ١٨٨٨ حتى ١٩١٠ من قبل مالا يقل عن خمسين استاذاً جامعياً من ستة أقطار ، ومنهم أربعة من الفائزين بجائزة نوبل . وقد زعم أنها اكتشفت في مناسبات عدة تمارس الخداع (الأمر الذي لم يكنه هوم) إلا أن الدلائل على PK المتولدة في حضورها تملأ عدة مجلدات ولكانت اعتبرت دلائل نهائية لو كانت دلائل على أي شيء آخر . ومع ذلك ، فقد تمّ تجاهلها عموماً أو رفضها ككل . كدلائل التخاطر ، بالمنعكس الذي يعمل عندما نواجه شيئاً لا يمكننا تعليله .

إحدى السمات المثيرة للاهتمام عند بالادينو كانت وجود ثقب في جمجمتها ، لم يتوفر تعليل على منشئه قط ، وهناك من الدلائل ما يوحي بأن «الوساطة» قد تكون ميزة بشرية قديمة العهد يمكن العمل على زيادتها بشكل كبير بوساطة صدمة شديدة للدماغ . ضُرب إدغار كيس على رأسه بمضرب كرة البيسبول قبل ظهور قدرة الاستبصار لديه لأول مرة بفترة قصيرة . بيتر هوركوس بدأ عمله كوسيط محترف بعد سقوطه عن أحد السلالم . تشيكوكسافييه ، البرازيلي شبيه الأمي الذي

كتب إلى الآن ما يربو على المئتي كتاب في حالة وعي متبدلة (بعضها ذو قيمة أدبية كبيرة) قد تعرض لسوء المعاملة الجسدية على يد والده بالتربية وهو طفل ؟ وقد ضرب مرة على رأسه بمقلاة .

أجرى د. بيتر فينويك ، محاضر رئيسي في مشفى مودزلي في لندن دراسة لسبعة عشر وسيطاً ووجد أن ٢٩ بالمئة منهم كان تاريخهم يشتمل على اصابات رأسية بالمقارنة مع ٦ بالمئة فقط من مجموعة ضابطة من الحجم نفسه . طبيب نفساني آخر ، د. خوريه سي . فيراز سيلز من البرازيل ، قد وجد صلات لافتة للنظر بين المواهب العقلية غير العادية ، بما فيها «الوساطة» وولادات الطفل الأزرق ، والتي يعتقد فيها أن النقص الحادي في الأوكسجين يتسبب عادة في تنشيط مناطق هاجعة في الدماغ . هذه هي اتجاهات واعدة في البحث ، آمل بمتابعتها .

يمكن ، برغم ذلك ، أن تكون موهبة PKمتوزعة بين الناس كأي موهبة أخرى إن كان ، كما اكتشفت في أيار ١٩٨٣ ، لدي بعض منها ، فأنا أرفض الاعتقاد أن الكثيرين غيري لا يملكون بعضاً منها كذلك . قد لا تكون PK شيئاً يمكن لأحدنا فعله ، بل شيئاً يحاول الكثيرون منا ألا يفعلوه عن عمد . على أية حال ، سأعمل على عصرنة قصة تمايل الطاولات ، برواية للحوادث التي أدت إلى خبرتي الخاصة .

في ٢٥ نيسان ١٩٦٤ ، جلس أربعة أشخاص إلى طاولة في بيت ريفي منعزل في ديفون شاير . لم يكن أي منهم روحانياً ولم يزعم أحد منهم امتلاكه لأية مواهب وساطة من أي نوع .

كان المضيف كينيث ج . باتشيلدور ، عالم نفس سريري رئيسي لمجموعة من المشافي المحلية ، وكان ضيفاه زميلين في العمل ، بات كوكهلان وبيل تشيك ، والسيدة تشيك أكملت الرباعي . كانت أمسية اجتماعية عادية بين أصدقاء على معرفة تامة ببعضهم .

أخذ الحديث ينحو باتجاه ما فوق الطبيعية، وبدأت بات تستذكر بعض خبرات الأشباح من وطنها إيرلندة . كانت قاصة بارعة وكانت لقصص الأشباح الأيرلدنية نكهتها الخاصة بعويلها الذي يندب الموتى وجنازاتها الشبحية . . . على الفور ، قال باتشيلدور :

«فلنجرب إمالة الطاولات ، لمجرد التسلية !»

وقد كان شكاكاً بالأمور النفسانية ومارس اللعب بلوحة أويجا في المدرسة ، حتى أنه شكل جمعية للبحوث النفسانية قامت بمحاولة مبتسرة في إمالة الطاولات. مع ذلك . حضر زملاؤه الأعضاء يوم الأحد التالي بالذات صفاً انجيلياً اتفق ان كانت المحاضرة فيه عن «أخطار الروحانية» . كانت تلك نهاية الجمعية وقد تخلى عن اهتمامه بالمسائل الخارقية في النهاية نظراً للثقافة التي تيسرت له ، رغم أنه احتفظ بـ «اهتمام داخلي خفي» ، بها . في دراسته لنيله شهادته الجامعية في علم النفس تدرب على النظر إلى الظواهر العقلية كنتاجات ثانوية للنشاط الدماغي ، والتعامل مع الظواهر التي تقبل الملاحظة فقط ، التي كانت تعمل وفاقاً للقانون الكبير للمثير والاستجابة كما شرحه واطسون وسكيز .

حتى وهو كذلك ، أخذ يسائل نفسه عما إذا كانت بعض الروايات القديمة عن غرف جلسات تحضير الأرواح في العصر الفيكتوري كان لها بعض من حقيقة في نهاية الأمر . كان يعلم أن فارادي العظيم قد فضح زيف إمالة الطاولات كما كان مفترضاً عام (١٨٥٣) بتعليله ذلك على أنه عائد لـ «فاعلية عضلية لا واعية» من أيدي الجالسين . ولم يتوقع حدوث أي شيء درامي . «كنت أتوقع أن تتمايل الطاولة ،» يستذكر اليوم «إنما لا أكثر من ذلك .»

لا بد أن أذكر أن فارادي بالمناسبة لم يشهد أبداً أية سباحة للطاولات في الهواء أو حركات لها دون أن يمسها أحد ولم يقم بمحاولة لتعليل ذلك ، كل ما أبداه كان أن الجزء المتحرك العلوي للطاولة يمكن حمله على التمايل عن طريق «الفاعلية العضلية اللاواعية» . يبدو أن الشُكّاك قد نسوا هذا لم يحدث شيء في جلسة إمالة

الطاولات الأولى عند باتشيلدور عام ١٩٦٤ ، باستثناء بعض الاهتزازات الخفيفة للطاولة ، والتي حسب أن من السهولة بمكان عزوها إلى الفاعلية العضلية اللاواعية . ربما كان فارادي على صواب في نهاية الأمر ؟ وقد عزم الجميع على التجريب بعد عدة أماسٍ ومرة ثانية أبت الطاولة أن تبارح أرض الغرفة ، رغم حدوث حادثة مثيرة للفضول خلال المساء .

وضع بيل تشيك طبلاً افريقياً ضخماً على الطاولة وقال نصف مازح ، «هل للأرواح أن تضرب على الطبل ؟» تلت فترة صمت طويلة خلالها أن الريح في الخارج أخذت تشتد ، وقال بيل إنه شعر أن «شيئاً ما» قد دخل الغرفة ، انتظروا حدوث شيء ما ، أخذ النعاس يغالبهم ، ثم سمعت خبطة مدوية صادرة عن الطبل ، الذي بدأ أنه قفز قفزة صغيرة .

جفل بيل الذي بدا أنه غفا . «ماذا كان ذلك ؟» سأل . لا يزال باتشيلدور غير متيقن مما جرى ، بالرغم من أنه شعر أن بيل ربما ارتطم بجانب الطاولة ، من جهته بصورة غير مقصودة وهو يستيقظ . لقد كانت بالتأكيد غير تلك الضجة التي كان يسمعها مراراً في البيت حين هبوط الحرارة في المساء .

مهما كان ذلك ، فإنه لم يتكرر ، ولم يحدث شيء في ثلاث جلسات أخرى . شعر باتشيلدور مع ذلك ، أن عليه أن يعطي الظاهرة مزيداً من الوقت كي تظهر (إن وجدت) وأقنع زملاءه بالقيام بمحاولة أخرى . خلال الاجتماع السادس ، بدأت الطاولة تنزلق دائرياً على أرض الغرفة وتميل على قائمتين .

«شعرت بالفضول الشديد ،» يقول باتشيلدور ، «وقررنا المتابعة» ما أثار فضولنا بشكل خاص كان الطريقة التي قاومت بها الطاولة أية محاولة لدفعها ثانية إلى الأرض بعد التمايل . كان الأمر «يشابه إمساكك بمظلة في عكس اتجاه الريح» . بدأت الشكوك تساور باتشيلدور حول نظرية الفاعلية العضلية اللاواعية بينما استمرت الضربات الخفيفة والانزلاقات خلال أربع جلسات أخرى .

ثم جاءت الحادية عشرة ، ألفت المجموعة نفسها خلالها للمرة الأولى تجلس إلى الطاولة في ظلام مطبق ، في السابق كان هناك دائماً بعض من نور من إحدى الشموع . نور الغسق الذي يمرّ من خلال الستائر ، أو النيران في العراء ، أما الآن فقد خمدت النيران ، ولم يكن هناك ضوء على الإطلاق . لن ينسى باتشيلدور ما حدث عقب ذلك .

أظلمت الحجرة إظلاماً شديداً ، وقلت «سيكون أمراً مهولاً لو انطلقت هذه الطاولة وسبحت في الهواء بعيداً عن الأرض» - وفي الحال فعلت ! فقد ارتفعت عدة بوصات ، تأرجحت من جانب إلى جانب كما الرقاص ، ثم استقرت ثانية ، توقفنا في الحال وشرعنا في مناقشة مفعمة بالحيوية بقية المساء . قلنا «يا الهي ، هناك شيء ما في تلك الحكايا الفيكتورية بعد كل هذا وذاك .»

ربما لم يشاهدوا جميعاً الطاولة وهي ترتفع ، لكنهم من المؤكد شعروا جميعاً بها وهي ترتفع تحت أيديهم ، وكانوا متفقين تماماً أن أحداً من المجموعة لم يكن يخدع الآخرين بنشاط واع من ركبة أو اصبع قدم . وقد وقعوا جميعاً على بيانات مكتوبة بهذا الخصوص ، ووافقوا جميعاً على أنهم تجاوزوا نقطة اللارجوع . كان هناك أمر ما في ذلك كله في نهاية المطاف .

بنهاية عام ١٩٦٥ كان باتشيلدور قد عقد جلسته المئتين . وقد اهتزت تسع من مختلف الطاولات وانزلقت ، وتمايلت ، وانقلبت وسبحت في الهواء في مناسبات عدة . وقد تهشمت ثلاث منها إلى قطع صغيرة أثناء العملية . خبطات من كافة الأنواع صدرت ليس عن الطاولات فحسب بل كذلك عن الكراسي ، وألواح أرض الغرفة الخشبية وحتى عن الجدران . آثار برودة يمكن تمييزها بسهولة عن التيارات العادية شُعر بها . كراسٍ انجذبت إلى الخلف بعنف ، في إحدى المرات أطاحت بجليسها المجفل أرضاً . شوهدت الطاولة وسمعت تتحرك دون مس جسدي ، حتى عندما كان الجميع يقفون ويرفعون أيديهم ، أو يجلسون ويلمسون أيدي وأقدام بعضهم . بالرغم من عدم رؤية الطاولة نفسها في الظلام

الدامس ، أمكن مشاهدة حركتها بفضل العلامات آلمضيئة التي ألصقت بزواياها ومركزها عادة .

مالت الطاولة للأعلى أربع مرات بينما كان بات كوكهلان يجلس بشكل واضح في وسطها ، وفي إحدى المرات ارتفع الجانب الذي كان باتشيلدور يجلس عليه . وقد وجد ذلك أكثر تعبيراً من الميلان إلى أمام ، حيث أنه كان يزن أكثر من ثلاثة عشر حجراً[1] . اعتبر أن فرضية فارادي في الفاعلية العضلية اللاواعية أخذت تضمحل .

بالرغم من أن باتشيلدور لم يعلم بذلك آنئذ فإن مجموعته لم تكن المجموعة الأولى الحديثة التي تجرب وتكرر أثر ميلان الطاولات الفيكتوري . هاكون فوروالد . مهندس نرويجي يعمل لحساب آسيا ، وهي شركة سويدية كهربائية بارزة ، عقد إحدى وستين جلسة بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٠ ، لم تنشر تفاصيلها الكاملة إلا بعد وفاته بثماني سنوات . عام ١٩٨٤ ، كانت جلساته تعقد في الضوء ، وكان باستطاعته مراقبة زملائه الجالسين بدقة كبيرة ، وكان معظمهم مهندسين كذلك . كثير من الظواهر التي وصف كان مشابهاً لتلك التي شاهدها باتشيلدور بشكل مستقل ، مثل أثر «المظلة في عكس الريح» ، الذي وصفه هو «بقوة مضادة مرنة» . لاحظ أيضاً أن طاولته كانت تبدو أحياناً في «قبضة قوية لنوع من الآليات الموجهة» (بكسر وتشديد الجيم) .

تابع فوروالد دراسته للـ PK ، لكن باستعماله زهر النرد عوضاً عن الطاولات بناء على اقتراح ج.ب . راين ، الذي تعاون وإياه معظم حياته الباقية ، وقد أبدى الملاحظة المثيرة وهي أنه وجد موهبته في التخيل العقلي ذات فائدة في عمله في PK كما هي ذات فائدة في مهنته (كان يحمل أكثر من خمسمئة براءة اختراع) .

---

(١) الحجر : وحدة وزن بريطانية تعادل ١٤ باونداً . (المترجم)

في أيلول عام ١٩٦٦ ، نشرت جمعية البحوث النفسانية تقرير باتشيلدور من ثماني عشرة صفحة وعنوانه «تقرير في حالة سباحة الطاولات والظواهر المتصلة بها» في مجلتها . كان تقريراً حذراً وواقعياً وخالياً من أي تنظير يحث القراء على أن «يتوقفوا عن عدم الإيمان لمدة تكفي للقيام بتجريب متواصل بأنفسهم» .

بدأت مجموعة واحدة أخرى على الأقل على ما يبدو في القيام بشكل مستقل حوالي نفس الوقت الذي كان فيه باتشيلدور وأصدقاؤه يجربون ، في عدد آذار لعام ١٩٦٧ من مجلة جمعية البحوث النفسانية ـ وصفت سيدة سلسلة تجاربها المختصرة ، التي كانت قد بدأت بعد حفل عشاء الضيوف الثمانية ، «من النوع الذي لم يكن من الميسور إقناعه» ، اشتملوا على رئيس شركة ، رجال أعمال شتى ، وزوجاتهم .

في غرفة طعام جيدة الاضاءة في لندن ، وضعوا أيديهم على الطاولة ، التي سرعان ما بدأت تصرّ وتنزلق ، وفي النهاية ارتفعت كلية عن الأرض . كانت المضيفة متيقنة أن طاولتها البلوط الثقيلة قد بقيت معلقة في الهواء لثوان عدة حيث أمكنها رؤية بقعة صغيرة من الأرض تحت كل قائمة . لاحظت أنها لم تتوقف عن الصرير أثناء سباحتها . بشكل كانت تخشى معه أن تنشق إلى نصفين . كان رد فعلها عملياً بشكل مدهش ، رغم كونه مخيباً لآمال البحاثة النفسانيين .

«إذ كنت بحاجة إليها للغداء في اليوم التالي» روت ، «جلست تحت الطاولة جذبتها ثانية إلى الأرض .» حينما فعلت ذلك ، لاحظت أن الجميع كانوا وقوفاً ، كي يبقوا أيديهم على الجزء العلوي للطاولة . كانت القوائم ، كما حسبت ، تعلو ثماني بوصات تقريباً عن الأرض . أضافت أن طاولتها كانت من النوع الذي يطوى ، بقوائم قابلة للطي ، وإن رفعت بشكل طبيعي وهي في كامل انبساطها ، فإن القائمة تحت الجناح المرفوع تأخذ في التأرجح نحو الداخل والجناح نفسه يهوي للأسفل .

كاتبة هذا التقرير الموجز لم تكن تفكر بأي غنم من جزائه . وقد كتبته إلى جمعية البحوث النفسانية بناءً على إلحاح لها ، الكاتبة روزاليند هاي وود ، التي شهدت أن موقف صديقتها كان من النوع الذي «لوقيلت هذه القصة لها ، لما صدقتها ، لذلك لم يصدقها غيرها من الناس ؟» يعجب المرء كيف أن كثيراً من الأدلة من هذا النوع تبقى دون رواية لأسباب مماثلة .

حاولت السيدة هاي وود ما وسعها أن تقنع جارتها بمتابعة عملها مع الطاولة ، لكن بعد جلسة أخرى أو جلستين ، انزعجت إحدى المشاركات وقررت الكف عن المتابعة . وبهذا انتهى ما كان يمكن أن يتطور إلى برنامج بحث مثير للاهتمام .

كان باتشيلدور وزملاؤه من طينة أشد صلابة ، واستمروا في عملهم . كذلك أقنعوا عدة مجموعات أخرى بالمحاولة وإعادة ما توصلوا إليه ، في أفضل تقاليد العلم التقليدي . وقد قام عدة منهم بذلك ، أشهرهم مجموعة تورنتو ، كندا ، التي أسسها البروفيسور جورج أدين ، مؤلف العمل النموذجي في ظواهر الأشباح المصوتة وزوجته إيريس . وقد ابتدعا شبحاً اسمه فيليب ، وأقنعاه بدق رسائل واستحداث طائفة من الأثار المادية ، من بينها بعض حركات الطاولة النشطة ، التي وضعت بشكل كامل في كتاب رائج له صفة المعقولية المنعشة للذهن . مجموعة ناجحة أخرى بدأها كولن بروكس سميث ، مهندس آلات موسيقية متقاعد تعاون بشكل وثيق مع باتشيلدور ونشر عدة مقالات تفصيلية في مجلة جمعية البحوث النفسانية وصف فيها بعض التقينات الذكية في قياس وتسجيل الـ PK . (توفي عام ١٩٨٢) .

لا خطر في القول أن أحداً لم يكرس وقته وفكره لإمالة الطاولات كما فعل باتشيلدور ، بالرغم من أنه لم يكن معلوماً كم توفر له من معرفة عنها إلا في نهاية السبعينيات. لو لم ينشر مقالة مبتسرة في مجلة علمية مغمورة عام ١٩٧٩ لما علمت أنه لم يزل على قيد الحياة .

عام ١٩٨٢ ، عقد مؤتمر كبير في كيمبردج احتفالاً بالذكرى المئة لجمعية البحوث النفسانية إضافة إلى اليوبيل الفضي للرابطة الباراسيكولوجية . ؟ ست جلسة صباحية كاملة لمناقشة دولية لـ «منهج باتشيلدور» . كانت هي المرة الأولى التي يسافر فيها باتشيلدور أبعد من بضعة أميال من بيته في ديفون شاير خلال سنوات عدة .

مصغياً إليه وهو يتحدث بهدوء وثقة عن خبرته الطويلة مع الطاولات ، كنت أشعر أنه على معرفة بما كان يتحدث . دهشت عند معرفتي أنه ما انفك يعقد جلسات دون انقطاع تقريباً منذ عام ١٩٦٤ ، وكنت أكثر دهشة إذ لاحظت أنه كان قد فعل ما فشل الآخرون جميعاً في فعله لأكثر من مئة عام : استنباط طريقة لاستحداث أكثر الظواهر مدعاة للحيرة الـ PK عملياً عند الطب ، وكان لديه نظرية نفسانية تفصيلية جداً دعماً لها .

وجدت أن ما كان يفعله طيلة تلك السنوات ، كان في كثيره ما كان فعله تشارلز هونورتون ، كارل سارجنت وآخرون مع التخاطر ، إذ عوضاً عن التحلق ومناقشة ما إذا كان مثل هذا الشيء موجوداً ، فقد لاحظوا الكيفية التي حدثت بها في واقع الحياة ، وانتبهوا إلى الشروط التي كانت تسود حين حدوثها ، ومن ثمّ أعادوا خلق تلك الشروط قدر استطاعتهم في مخابرهم . إن الفارق الأساسي بين عملهم وعمل باتشيلدور هو أن الـ PK أكثر مدعاة للحيرة والخداع والتعقيد كظاهرة مما هو التخاطر . ولم يصل باتشيلدور إلى مرحلة المختبر ، رغم إجراء تجارب مبنية على نظرياته على يد د. جون بالمر في جامعة أوتريخت .

بعد محاولته الأولى الناجحة في تعليق الطاولات في الهواء في تاريخ يعود إلى ١٩٦٤ ، شرع باتشيلدور يتعلم ما استطاع عن الـ PK ، وإقامة ما يجب الآن أن يكون أضخم المكتبات المكرسة له في العالم . وسرعان ما وجد أن الدليل لم يكن موثقاً في أشد تفاصيله فحسب ، لكن جلّه كان متساوقاً ، يعمد المراقبون المستقلون

إلى وصف حوادث مشابهة ، كثيرها شهده هو أيضاً في بيته ، كما كنت أنا أفعل أيضاً . نظرة إلى بعض العناوين على رفوفه تعطي فكرة عن السبب في بقاء الكثير من الأدلة الأولى دون قراءة إلى حد كبير حتى يومنا هذا . أي عالم سيمسّ كتباً تدعى (ثلاثون سنة من البحوث النفسانية ، في الأعاجيب والروحانية الحديثة ، أو بعد الموت ، ماذا ؟) عناوين غير جديرة بالتأكيد بمؤلفيها على التوالي ، تشارلز ريتشيت ، والاس ، وسيزار لا ميروزو ؟

أول شيء كان بودي معرفته حين ذهبت لمقابلة باتشيلدور عام ١٩٨٣ هو السبب ، مع وجود دلائل كثيرة على قدرة الناس على تعليق الطاولات في الهواء بواسطة الـ PK ، في عدم قبولها بشكل عام كواقعة حياتية ؟ كان عنده الجواب الفوري الطلق ، كما لو كان ينتظر السؤال : «هناك عداء يدعو للإرسال بين الحالة العقلية العلمية الشكاكة ، والحالة اللازمة لاستحداث الـ PK» . أخبرني . كي تعطي الـ PK نتيجة ، عليك أن تؤمن مئة بالمئة أنها في طريقها للحدوث ، بينما الموقف الذي يميز العالم هو الشك ، والقول «فلنجرب هذا الشيء ونتأكد من أنه حقاً ما يزعم أنه عليه» . أما بالنسبة للـ PK ، يجب ألا يكون تفكيرك «أهي ؟» ، بل «هي» عليك أن تعلّق موقفك العلمي إن شئت في حدوثها . يمكنك أن تكون انتقادياً ما شئت بعد أن تتوصل إليها ، إنما ليس وأنت تقوم بها» .

لم يكن قبول هذا سهلاً على العلماء ، أقرّ هو ، لكنه كان الاسلوب الذي وجده فعالاً ، وذا مغزى . «إن كانت الظواهر تتشكل عن طريق الفكر» ، وقال ، «عندئذ لمن الواضح أن الأفكار الشكاكة لن تخلق سوى الظواهر المشكوك بها ، أو ربما لا شيء على الإطلاق .» وقد ذكرني ذلك على الفور بالمقطع الذي قبسته من الكتاب عن التنويم المغناطيسي الطبي في فصل سابق حيث أعلم الأطباء بوجوب «انتفاء الشك من صوت المنوم (أو عقله) حيال تحقق التحسن الموحى به ». إذا قبلت إزالة كل الشكوك من العقل وكذا الصوت كجزء أساسي في التقنية الطبية ، ستكون لدينا سابقة جيدة لقبول هذا الأمر في مجال من البحوث آخر .

قد تكون إمالة الطاولات فعالية تافهة ، إلا أن دراسة العوامل التي تجعلها ممكنة ليست كذلك بالتأكيد . الايمان ، نحن واثقون ، يمكنه أن يزيح الجبال . كذلك يمكنه انقاذ أرواح عن طريق عكس مسار «الأمراض المعنّدة على الشفاء» ، وقد أحدث تبديلاً في نوعية حياة الفرد ، على مدى آلاف السنين ، كما لا يزال يفعل ، والآن ، يبدو أن بإمكانه إزاحة الطاولات كذلك ، لذلك ، إذا ما أفلحنا في تحديد الطرق التي يتحقق معها الايمان الكافي لازاحة طاولة ، فإننا نكون قد تعلمنا الكثير عن طرق إنقاذ الأرواح . الإيمان ، بعد كل هذا وذاك ، هو الإيمان ، مهما يكن مجال تطبيقه . لذلك سألت باتشيلدور كيف لنا أن نكتسب الإيمان إذا لم نكن نملكه من قبل ، لن يكون هناك الكثير من الناس الذي يجلسون إلى طاولة دون أن تساورهم الشكوك فيما إذا كانت ستبارح الأرض أم لا .

«يكاد يكون من المستحيل اكتساب الكافي من الإيمان بطريقة الجهد العقلي المتعمّد .» أجاب . «على سبيل المثال ، لن يكون من المجدي أن تضع يديك على طاولة وتقول لنفسك» أؤمن أن هذه الطاولة ستسبح في الهواء . مهما جهدت في محاولتك لن تفلح لأنه من المؤكد أن عنصر شك سيساورك . قد يصيب الحاذق أحياناً ، لكن ليس كل الناس حاذقين .

«لحسن الحظ» تابع ، «هناك في تمايل الطاولات ما يمكن مجموعة من الناس العاديين من النجاح في توليد PK دون حتى قيامهم بالمحاولة ، شريطة أن يكونوا على درجة معقولة من تفتح الذهن . هي هكذا : في معظم الحالات ستأخذ الطاولة بالتحرك بسبب الفاعلية العضلية اللاواعية يعطينا هذا وهماً مدهشاً في أن الطاولة تتحرك بمحض إرادتها ـ كما لو دبَّ فيها نشاط عن طريق قوة غامضة . سيتكون لديك الانطباع أنك قد بدأت تفلح في توليد الحركات الخارقة .

«هذا له من التأثير عليك تماماً ما للنجاح الفعلي . فهو يطوّح بشكوكك ويولد فيك الإيمان الشامل ـ أو على الأقل لحظات من الإيمان الشامل . يحدث هذا بصورة تلقائية لا إرادية ودون جهد عقلي من جانبك ، لذا يتكون لديك لحظات

من الإيمان الشامل بإمكانك أن تولد فيه PK حقيقية . قد تكون هذه لفترة مركبة فوق حركات الفاعلية العضلية اللاواعية لكن يمكنها الحدوث بدونها لاحقاً ، تغدو حركات الطاولة بالتدريج أقوى وأكثر تنوبعاً ، وبمضي الوقت يمكن أن تقود إلى حركة دون احتكاك أو سباحة في الهواء ».

العملية الحاذقة في تحفيز الإيمان بالوهم وتعزيزه مباشرة هي الأساس في المبدأ الذي يدعوه باتشيلدور «التحريض بالطريقة الصنعية» . وقد أوجزه لي كما يلي :

كل ما أنت بحاجة إليه هو مجموعة من الحوادث الطبيعية ـ أشياء صنعية ـ يخلط خطأ بينها وبين الحوادث الخارقة . يخلق هذا كمية كافية من الإيمان الشديد تتمكن معه من توليد الشيء الحقيقي . مثل هذه الأشياء الصنعية قد تكون إما عرضية أو متعمدة . في تمايل الطاولات ، على سبيل المثال ، تنشأ الحركات العائدة إلى الفاعلية العضلية اللاواعية بشكل عرضي تماماً ، لكن إذا ما أقدم أحدنا على دفع متعمد للطاولة ، وبقي ساكناً ، فإن هذا يعطي تقريباً النتيجة نفسها . »

أتقصد القول إن الخداع يمكن أن يقود إلى PK حقيقية ؟» سألته . شعرت أنه كان يضيف تلغيماً آخر إلى حقل محشو بالألغام من قبل .

«حسناً» أجاب ، «التحريض الصنعي المتعمد يماثل الخداع ، نعم لكن إحداث الـ PK في مجموعة يمكن ويجب أن يحدث على أساس أشياء صنعية من النوع العرضي . الخداع لا يقود إلا إلى الفوضى حتى وإن كان ـ نظرياً ـ فعالاً . ومن الطبيعي أن يكون الشامانيون قد عرفوا لعدة قرون أنه فاعل .

إن كان لورين باركس مصيباً ، فإن جراحي النفس الفيليبينيين لا يزالون يعرفون هذا ويمارسونه ، ولا يزال يعطي نتائج وبالتأكيد فقد قاد هذا إلى الفوضى في حالتهم .

نظرية باتشيلدور في التحريض الصنعي يمكن تطبيقها على أشياء كثيرة غير إمالة الطاولات ، بدءا من التنويم المغناطيسي والشفاء بالإيمان حتى ليّ الملاعق

ولربما الأشباح المصوّتة . يمكننا معها بالتأكيد تعليل بعض المشاكل التي تنجم عقب اللعب بلوحات الأويجا .

كما يعرف الآن الكثير من الأولاد ، وعدد لا بأس به من الراشدين ، يمكنك أن تبدأ بوضع أصابعك على كأس منقلبة ، وتراقب والدهشة تعلو وجهها وهي تنتقل من حرف إلى حرف ، وتبدأ في كتابة رسائل بارعة ، ومن ثمة تجد الأشياء تفلت من يديك .

«حالما تشكل لك شيء على قدر من الغرابة ، يعتريك الخوف ، ومن ثمّ تخلق لك مشكلة ،» أوضح باتشيلدور . «الخطر الرئيسي في اللعب بالقوى النفسانية هو أنه إذا اعتراك خوف منها ، فإنك تجعلها تتشكل في شكل حادثة مخيفة ـ أنت تخلق ما منه تخاف . إن عرفت هذا ، ومارست بعض الضبط في عدم الخوف بلا مبرر ، عن طريق تذكيرك لنفسك على الدوام أنك إنما تخلق هذا الشيء بواسطة الـ PK ، وأنه سيؤدي لك ما به تؤمن ، فإن بإمكانك إبقاء الأشياء تحت سيطرتك . لا أدع الجالسين عندي يتحدثون عن أشباح العفاريت أو ما شابه ذلك . فنحن لا ندري أي شيء نخلق إذا ما شرعنا نفكر على هذا المنوال .

أما بالنسبة لحالات الأشباح المصوّتة ، فإنه يعتقد أن الحوادث التي تطلق الأشباح من عقالها في بعض الحالات يمكن النظر إليها على أنها أشياء صنعية تحدث بصورة عرضية . «لا أؤيد الفكرة التي تقول إن انطلاق الأشباح المصوتة هو تعبير عن التوتر والعدوان المكبوتين . مشافي الأمراض العقلية تغص بأناس لديهم الكثير من العدوان المكبوت لكنه لا ينفجر في شكل ظواهر الأشباح المصوتة . من السذاجة أن نعتقد أن العدوان يشتد عند كبته بشكل ينفجر ويحصل قذف للأقداح بواسطة الـ PK . أفضل الاعتقاد أنه إذا كان لديك عائلة متوترة تؤوّل حادثة عرضية ـ كسقوط كوب من على أحد الرفوف بشكل عرضي ـ على أنه شبحي . فبإمكانهم استخدام ذلك للتعبير عن بعض حاجاتهم النفسية . إن اعتقدت أن عدواناً على وشك الوقوع . فمن المحتمل أنك ستوجده .»

مرة ثانية نعود إلى مسألة الاعتقاد والإيمان ، وكيف نحصل عليهما . حدد باتشيلدور طريقة أخرى بسيطة جداً للحصول على الإيمان بإمكان حدوث الـ PK ، ويتجلى هذا في رؤية الآخرين يفعلون ذلك ومن ثمّ محاكاتهم على الفور .

كثير من الأولاد في شتى أرجاء العالم ألفوا أنفسهم يلوون الملاعق مباشرة بعد رؤيتهم أوري جيلر يفعل ذلك على التلفاز . لا يهم على الإطلاق ما إذا كان جيلر يفعل ذلك بواسطة الـ PK أو بخفة اليد كما يحلو للبعض أن يعتقد . ما يهم هو أن المشاهدين يحسبون أنه يفعل ذلك عن طريق قوة العقل ، وحين ينبئهم أن باستطاعتهم أن يفعلوا الشيء ذاته ـ على الفور ـ فإنهم يصدقونه . إيمان على الفور . للأولاد «مقاومة امتلاك» أقل بكثير ، كما يسمي باتشيلدور عدم الرغبة في الاعتراف أن باستطاعتك فعل الـ PK بنفسك . ومنه حشود «صغار ـ الجيلريين» الذين هم مصدر الأخبار في أي بلد يزوره جيلر . حينما يقول لهم إن باستطاعتهم ليّ الملاعق كما هو ، فإنهم يفعلون .

وجد بضعة من هؤلاء الجيلريين الصغار أنه حالما يفعلون ذلك ، فإنهم يعلمون أن المفترض أن يكون ذلك مستحيلاً ومن ثمّ يجدون أنهم لا يستطيعون فعل ذلك ثانية . بإمكانهم أن يفعلوا على الفور ، وهذا تعبير باتشيلدور عن تصور المهمة التي أنت بصدد إنجازها ـ لكن فقدهم إيمانهم جعلهم يلجؤون إلى الخداع . وفي ذلك مرضاة لذوي العقول اليسرى من العلماء الذين يصلون إلى المكان جدّ متأخرين ، بعد انتهاء اللحظة السحرية ، ويضبطونهم متلبّسين به .

أصبحت مسألة الخداع والاحتيال هاجساً لدى بعض نقاد الظواهر النفسانية ، إضافة إلى عدد كبير من الباراسيكولوجيين ، بشكل تحضرنا معه كلمات عالم النفس الأمريكي ويليام جيمس ، وهو ذاته باحث نفساني خبير : «إذا نظرنا إلى التدجيل على أنه ظاهرة تاريخية ، نجده يتصف بالمحاكاة دوماً . يحاكي مخادع مخادعاً سابقاً . لكن المخادع الأول من ذلك النوع كان حاكى من كان نزيهاً»

ينطلق هذا أيضاً على أناس يحاولون أن يقلّدوا أنفسهم . عام ١٩٨٣ أجريت مقابلة مع فتاة دانمركية تدعى أيو ، أكدت لي والدتها بشكل مقنع جداً أن شوكة قد التوت التواء مضاعفاً تقريباً في يد ابنتها ذات العشر سنوات وهي تمسكها من طرفها وتمسدها بخفة باصبع واحد بعد مشاهدتها جيلر يفعل ذلك على التلفاز . لم تتمكن قط من القيام بذلك ثانية ، ولم تستطع فعل ذلك لأجلي رغم التشجيع الذي تلقته من والدتها . «الأمر مختلف الآن ،» قالت . يبدو أنها كانت تحاول دون وعي محاكاة شيء ما بقوة عادية كانت تعلم أنها قد فعلت ذلك بدونها من قبل .

من المحتمل جداً أن يكون التحريض بالطريقة الصنعية مسؤولا عن نجاح والاس في تعليق الطاولة في الهواء . وهو يصف كيف أن الوسيطة السيدة مارشال قد أوقفت طاولتها في الهواء لمصلحته هو، ومن وصفه لهذه إلى جانب غيرها من الظواهر ، لمن المحتمل جداً أن تكون السيدة مارشال وسيطة PK حقيقية ، على الأقل عام ١٨٦٥ . وحتى هكذا ، فإن والاس كان سيحصل على نفس النتائج في البيت لو تعرض للخداع . من السهل تزييف إمالة الطاولات . كل ما تحتاجه هو شريكان مع مساطر خشبية تحت أكمامهما ، تقوم بعمل الكلابات عند زلقها تحت سطح الطاولة العلوي بشكل عندما ترتفع الأيدي إلى أعلى ، عالياً ترتفع الطاولة . وقد فعلت ذلك بنفسي وكانت النتائج طيبة ، بالرغم من أنه في حالة وجود شخص واحد لا يمكنك سوى أن ترفع جانباً واحداً من الطاولة . وقد قمت بذلك لأول مرة في حفلة وكان تأثير ذلك على أصدقائي دراميأ جداً حتى أنهم حثوني على ممارسة عمل الوسيط الدجال . (كذلك كتبت «رسائل» عن طريق طرقي ظفري إبهامي ببعضهما ، وهذه واحدة من الحيل الكثيرة التي كان أول من وصفها آلان كارديك .) يستجر الخداع بالتأكيد إيماناً فورياً .

هذا غيض من فيض نظريات باتشيلدور التي جربت بشكل مستقل وتأكدت بالكامل على يد كولن بروكس ـ سميث الذي ثبت أن براعته التقنية إستكمال

لا يقدر بثمن لنفاذ البصيرة النفسانية عند باتشيلدور . صمّم بروكس ـ سميث وصنع عدداً من الطاولات الخاصة (وقد كان باتشيلدور نفسه أول من فعل ذلك في الواقع) ، وقام بوصلها سلكياً بشكل كان بالإمكان تسجيل أية قوة ميكانيكية طبيعية صادرة عن أيدي الجالسين ورسمها على ورق تخطيطي . ثم حمل جلساءه على إجراء قرعة بالسحب قبل الجلسة كي يحدد «الجوكر» بينهم . كان يسمح للجوكر بالخداع بين الفينة والأخرى ، وتبين دراسة للتسجيل لاحقاً من فعل ذلك . يقول الموقر آلان بارهام ، قسيس في كنيسة انكلترا وبحاثه نفساني حصيف كان له ثمانون جلسة في بيته مع بروكس سميث وثلاثة آخرين .

«كان الشيء المثير للاهتمام أن هذه الطريقة التي تحفز فيها قوة صاعدة عن عمد قد ساعدت فعلاً في استجرار نتيجة خارقية حقيقية .» كان التسجيل التخطيطي ، قال ، يبيّن متى قام الجوكر بمزاحه ، وكذلك بيّن استمرار الطاولة في التعليق في الهواء بعد أن أوقفها . «إن إيماننا غير المبرر أن شيئاً ما خارقاً ربما كان يحدث قد أطلق قوة الـ PK ، وهذه القوة التي تجنح شكوكنا الواعية أو اللاواعية إلى كبتها .» أن اكتشاف باتشيلدور أن الخارقي قد ينشأ من الطبيعي مهم جداً ، وله مضامينه الكامنة بالنسبة لعملية التنويم المغناطيسي والشفاء بصورة عامة .

يرى باتشيلدور أن كل شخص تقريباً يؤمن حقاً ويقضي بإمكانية حدوث الـ PK يستطيع إحداثها . أي شخص يمكن أن يكبحها إذا آمن عن وعي أو بدون وعي أنها ليست ممكنة . وقد أثيرت هذه النقطة في تاريخ يعود إلى ١٨٥٥ على يد روبرت هير ، أول عالم رئيسي يقوم بدراسة جادة لظواهر الحركة الروحانية الأولى في الولايات المتحدة . فقد وجد أنه حتى الراسخين من المؤمنين بالظواهر النفسانية يتضايقون حين يواجهون باحتمال مشاهدتها فعلياً دون أن يكون بإمكانهم تبرير وجودها عقلانياً . يستذكر باتشيلدور مثالاً على هذا «الكبح الشاهد» ، كما يدعوه ، عندما عقد جلسة لأجل لجنة زائرة من جمعية البحوث النفسانية .

«جلسوا يراقبوننا بصمت ،» قال لاهياً «وطيلة «معظم الوقت أبت الطاولة أن تتحرك .» لقد كانت واحدة من أكثر الجلسات التي عقدتها جدباً» .

لمشاهدة الـ PK ، كما يبدو ، عليك أن تشارك بها ، وهذا يجعل التثبيت عسيراً جداً . إن إقامة أي نوع من اختبار الضبط يبدل موقفك في الحال . فأنت لا تني تفكر «هل سننجح الآن ؟» إنما لكونك لست على يقين تام . فإنك تفقد الإيمان الكلي الضروري .» قام باتشيلدور بمحاولات عدة لتصوير طاولة معلقة سينمائياً باستعمال كاميرا تعمل بالأشعة تحت الحمراء وإضاءة تحت الحمراء غير مرئية ، لكنه لم ينجح حتى الآن بشكل كامل بالرغم من أن بعض لقطاته المتسلسلة مثيرا جداً . تظهر إحداها الطاولة وهي تتوازن على قائمتين كما كان واضحاً بينما يقف أحد الجالسين محاولاً أن يضغطها نحو الأسفل متكئاً عليها بكل ثقله . تظهر لقطة أخرى الطاولة وهي ترتفع قدمين أو ثلاثة أقدام عن الأرض وهي معلقة عبر الغرفة وواحد من الجالسين فقط يلمسها ، إنما لم يظهر مكان يديه بالضبط لسوء الحظ .

خلال جلسة مفعمة بالحيوية ، أطلقت فيلماً كاملاً من الصور الساكنة ، مستخدماً إضاءة الفلاش ، في تتابع سريع . بينما كنت أفعل ذلك ، أكد لي باتشيلدور والجليس الآخر تكراراً أن الطاولة كانت ترتفع تحت أيديهم ، لكن قبل ضغطي على صاحب الكاميرا بجزء من الثانية ، كانت تهوي بخبطة قوية ، وبينما كانت بعض صوري تظهر الطاولة في زوايا غير عادية ، لم تفلح أي منها في التقاطها معلقة في الهواء .

ليس لشريط التسجيل السمعي ، مع ذلك ، أي أثر مثبط على الاطلاق . وهذا يدعم اعتقاد باتشيلدور أنه ليس الضوء ما يكبح الـ PK بل الرؤية ، أو الوعي الكامل للمراقب . تحدث آثار الأشباح المصوتة غالباً في الضوء ، لكن خارج مجال رؤية المراقب . هذا هو السبب الذي يجعله يفضل العمل في الظلام الدامس .

«في الظلام» ، قال لي «يمكن أن يكون العقل هادئاً ، لأنك لا تشهد أي عمل خارق في شكله الواضح . كذلك تميل بعض أنواع الأشباح الصنعية العفوية اللازمة لتحريض الإيمان إلى أن تكبح في الضوء» وهو يعتقد أنه عند مستوى عميق ما نحن بحاجة إلى «منفذ» في الدليل ،كي نؤكد ثانية لأنفسنا أن الـ PK قد لا تحدث بعد كل هذا او ذاك . يوفر الشريط التسجيلي السمعي مثل هذا المنفذ ، لأنه يشمل على جزء من التسجيل فقط ـ الصوت . يشتمل الشريط التسجيلي السينمائي على تسجيل كامل ، وبينما قد تكون الرؤية هي الإيمان ، فإن السماع دون رؤية ليس كذلك .

يبدو أن الـ PK تخفي آثارها متى استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وأضاف ، «حتى إلى حد تخريب الكاميرات أو أجهزة التسجيل السينمائية لتدمير الدليل ، أو التيقن من أن هناك كبش فداء في متناول اليد يمكن أن تعزى إليه بوضوح الفعالية الخارقية .

أي من حاول التقصي في إحدى الأشباح المصوّته سيعرف جيداً قصده . فأنت تظن أنك حصلت أخيراً على صورة أو لقطة سينمائية متسلسلة تثبت أنك رأيت ما تحاول اقناع الآخرين أنك رأيته ، لتجد أنه لم يحصل ذلك . وقد أثارت جهود غراهام موريس البطولية في تسجيل الـ PK على الكاميرا أثناء قضية اينفيلد جدلاً لا ينتهي عما إذا كان قد صوّر أي شيء يتعدى فتاتين تمارسان الألاعيب . أعتقد أنه فعل ، بلقطاته المتسلسلة المدارة لمحرك والتي تظهر ستارة وقد لفت بشكل نابض لولبي متين وتبتعد عن نافذة كنت أعلم أنها مغلقة ، لكن الآخرين لم يتأثروا بذلك .

من غير المستغرب أن يتشكى النقاد من أن استحالة التقاط الـ PK بالكاميرا يعني أن لا وجود لـ PK يمكن تصويرها . من المحتمل أن يستمروا في شعورهم هذا إلى أن يلاحظوا أن هناك الآن نظرية نفسية مفصلة تعلل سبب عامل المراوغة هذا .

لم أقدم هنا سوى الخطوط الأولية في أدنى حد لها لبعض سمات هذه النظرية . تصل مقالة باتشيلدور الأصلية لعام ١٩٦٨ إلى ١١٥ صفحة مخطوطة تنتظر إلى الآن من ينشرها ، بالرغم من تداولها على نطاق واسع بين علماء النفس المحترفين وتلقيها قدراً كبيراً من التعليقات المحبذة . لم تعد الـ PK سلسلة من الوقائع المحيِّرة التي تنتظر نظرية . فالنظرية موجودة وهي الآن بانتظار التجريب .

إدارة الطاولات

بتاريخ ٢٠ أيار ١٩٨٣ قلع طبيب الأسنان لي ضرس العقل . كان صلباً على نحو غير عادي ، كما قال طبيب أسناني ، ورغم أني أحشو أسناني في العادة دون تخدير ، فإنه لم تتوفر لدي الشجاعة حتى الآن لأن أحذو حذو اينسلي ميرز وأقتلع ضرسي دون مخدر . هذه المرة ، حقن في فكَيّ كثير من هذه المادة ، حتى أنني شعرت وأنا أجلس إلى طاولة باتشيلدور لأول مرة في مساء اليوم التالي بقليل من الدوار .

بعد بضع ساعات كان شعوري بالدوار أكبر . إلى ذلك الوقت ، كنت قد شهدت من الـ PK في جلسة واحدة أكثر مما تيسر لي خلال عشر سنوات من التقصي في حالات الأشباح المصّوتة ، كما وصفت ذلك في ثلاثة كتب سابقة . سيجد الكثيرون صعوبة في تصديق الرواية التالية ، كما لا أزال أجد نفسي . مهما يكن ، فكل الحوار المقتبس دون تغيير أدناه مصدره شريط تسجيلي ، قام كذلك بتسجيل كافة أنواع الضجة المذكورة . وكما علّق السير ويليام كروكس في سياق مماثل ذات مرة فلست أدّعي القول إن هذا كله ممكن الوقوع . أنا أقول إنه حقيقي .

كنا أربعة . جلس باتشيلدور إلى يميني ، والمتمرس بيك تشيك قبالتي ، وإلى يساري كان هناك وافد جديد نسبياً إلى المجموعة ، مصور اشعاعي صناعي

يدعى برايان كوزوي ، وكان يقطن في أسفل الشارع . وقد استوقفني أن ثلاثتهم كانوا على قدر كبير من الطبيعية ، كانت الأمسية أمسية اجتماعية أكثر منها تجربة علمية .

بدأت الطاولة الصغيرة تتحرك بقوة حالما وضعنا أيدينا عليها تقريباً . أخذت تتأرجح من جانب إلى آخر على قوائمها الرفيعة ، وسرعان ما أخذت تهتز بقوة . كما كان والاس قد روى ، كان باستطاعتي أن أشعر بها حتى مرفقي . فاعلية عضلية لا واعية ؟ يجوز ، كان تفكيري إذ ذاك ، رغم أن يديّ قد استقرتا برفق على الوجه العلوي للطاولة . ربما كان الآخرون يقومون ببعض المزاح ، أو التحريض الصنعي ، لمصلحتي ؟ (جميعهم أنكروا هذا بشدة لاحقاً . كما قال باتشيلدور ، «لسنا بحاجة إلى ذلك» .)

بعدئذ أخذت الطاولة تميل من جانب إلى آخر بقوة أكبر . ثم شعرت أنها تنزلق بسرعة إلى يميني .

«أوه ، إنها تقحمني ،» قال باتشيلدور «من المتعذر عليّ إبعادها» .

حاولت أن أجذبها نحو مكانها الأصلي ، لكنها استعصت كلية . كان الأمر أشبه بجرّ بغل حرن وأبى أن يتقدم . ثم قفزت فجأة وارتفعت بزاوية على قائمتين ، ولبثت هناك . «يمكنك الوقوف والإتكاء عليها إذا شئت» ، قال باتشيلدور . فعلت ، وشعرت بالمقاومة نفسها . كان فعلاً ، كما وصف والاس ذلك ، كما لو أن الطاولة قد «استقرت على ظهر حيوان ما» . ثم انصاعت ثانية بصورة فجائية ، لكن عوضاً عن أن تعود إلى وضعها الطبيعي بدأت تتمايل في كافة الاتجاهات ، وهي تدق الأرض كثور مسعور على وشك الهجوم . وسرعان ما غدت القضية ليس إبقاء يديّ على الطاولة ، بل رفعهما أمامي دفاعاً عن النفس .

برغم الظلام المطبق ، ألفيت أن قدراً معيناً من المراقبة كان ممكناً . من الحديث العابر الذي استمر طيلة الوقت تكونت لدي فكرة واضحة عن مكان

الآخرين . وقد اقتنعت عن طريق الدفع السريع بذراعي أو ساقيّ من وقت لآخر أنه لم يكن هناك عضو من أعضائي في غير موضعه . وقد أمكن على الأقل رؤية شيء واحد بشكل مباشر : المَعْلَم المشع الصغير الملصق في مركز الطاولة . وكان هذا يختفي مراراً عن ناظري وأنا أشعر أن الطاولة كانت تتمايل مبتعدة عني .

اقترح باتشيلدور أن نقوم جميعاً بإبعاد أيدينا عن الطاولة ، عقب ذلك هوت الطاولة في الحال على أحد جوانبها كما لو كانت قد رفعت وأطيح بها إلى أسفل . وقد ذكرتني هذه الفجائية وهذا العنف ، على غير ارتياح ، بحوادث مماثلة سجلت على شريط في إينفيلد أثناء قضية الأشباح المصّوتة التي حقق فيها موريس غروس وأنا عامي 1977 و 1978 .

أفلحنا في إعادتها إلى وضع الوقوف ، حيث اختفى المعلم نهائياً وتلت فترة صمت قصيرة . «هي واقفة ، منتصبة الهامة !» هتف باتشيلدور : تلمست جواري ووجدت قائمة طاولة كان أسفلها يبعد قدمين اثنين بتمامهما عن الأرض . وقد بدا ذلك على أنه مثال لحركة طبيعية استحالت إلى عمل خارق . كنا قد رفعنا الطاولة لتصبح في وضعية الوقوف وتابعت هي رفع نفسها بنفسها .

عند هذه المرحلة لم أقم بأية محاولة للبحث عن تفسيرات عادية ، بل تركت الأشياء تحدث فحسب . ثم جرت حادثة لم يبدُ أي تعليل عادي ممكناً لها . مرة أخرى مالت الطاولة إلى يميني وقاومت محاولاتي لإعادتها إلى وضعها الأصلي . لذا وقفت وحاولت أن أرفعها . ثم شعرت بإحساس غير عادي إطلاقا «الأمر أشبه بساحة مغناطيسية» ، قلت . إذا حاولت دفع القطبين المتماثلين لقطعتي مغناطيس معاً ستخالهما يقفزان خارج المسافة التي تفصل بينهما حيث تتنافر ساحتاهما مع بعضهما . هذا ما شعرت به بالضبط . كانت الطاولة تتقافز بالمعنى الحرفي للكلمة على الهواء تحت يدي ، وكنت مقتنعاً أن أحداً غيري لم يكن يمسّها .

هذه الحادثة ، رغم كونها صغيرة الشأن بالمقارنة مع ما سيتلو ، اكتسبت أهمية جديدة بالنسبة لي بعد بضعة أسابيع ، عندما قرأت للمرة الأولى تقريراً عن

سلسلة الجلسات التي عقدت مع يوزابيا بالادينو في باريس من عام ١٩٠٥ حتى ١٩٠٨ . كان أحد المحققين معها ، آرسين دارسونفال ، رائداً في دراسة الآثار البيولوجية للكهرومغناطيسية وكانت معرفته بالساحات المغناطيسية تفوق معرفتي بكثير . وقد روى ما خبرته بالضبط بنفس العبارات تقريباً : «الأمر أشبه بمقاومة ساحة مغناطيسية» . كذلك وصف محاولة تحريك قطعة أثاث ووجد ، كما وجدت أنا ، أن المرء يشعر وكأنها مسمّرة مع الأرض» . يأتي المحققون ؛ وتبقى الظاهرة هي هي .

كانت العوبة طاولتنا الثانية الانقلاب على ظهرها ، دون أن يمسها أحد بقدر ما نعلم ، والشروع في الانزلاق في أرجاء الغرفة ، وعاليها سافلها . قبل هذا بالضبط كان باتشيلدور قد أحضر قدحاً بلاستيكياً مضيئاً ووضعه على الطاولة على أمل أن نراه يتحرك . وقد كان ضوءه كافياً كي يظهر بوضوح أية يد تلامسه .

حينما انقلبت الطاولة ، سقط الكوب وتدحرج نحوي على الأرض ، لذا التقطته وضعته فوق إحدى القوائم المنقلبة . ما كدت أبعد يدي حتى سمعت دوياً كسقوط شيء في الماء في الوقت الذي انقذف فيه الكوب في الهواء ، مرتفعاً ثلاثة أقدام على الأقل ليسقط على مبعدة مني . وقد قضيت أن ذلك لم يكن فاعلية عضلية لا واعية ولم تكن فاعلية أي شخص غيري كذلك . كما أكدت لاحقاً كان من السهل كشف يدٍ أو قدمٍ ضمن مدى ست بوصات من الكوب .

في المرة التالية وضع باتشيلدور صفيحة معدنية مضيئة مساحتها ست بوصات بقرب المعلم الصغير . كان هذا مثالاً على الأسلوب الذي يراه أساسياً ، وهو تحسين أدوات التحكم تدريجياً ما إن يبدأ الفعل . في الماضي ، أخبرني ، شوهدت أشكال غريبة تمرّ فوق هذه الصفيحة ، وكما هو الحال مع الكوب ، لم يكن بإمكان أية يد بشرية الاقتراب منها دون أن تضبط . لذلك لو تحركت الصفيحة المعدنية على الإطلاق ، أو لو مر طيف فوقها ، حسناً . .

لقد تحركت . واصطفقت إلى الأعلى والأسفل على مدى قدمين اثنين من عينيّ ، وهي تصدر صوتاً كخفقات عثة وقعت في مصيدة كمة المصباح . لم أستطع مقاومة دافع القيام ببعض الأبحاث المتأنيّة. لو كان أحد يمس تلك الصفيحة، لكنت لمسته . (لم يخطر لي وقتذاك أن لا أحد يمكن أن يمسها دون رؤية يدٍ ما) . أمررت يدي بسرعة حول سطح الطاولة ، ولمن المؤكد أن يدي اليسرى قد اصطدمت بما رجحت كثيراً أنه كان لحماً بشرياً . «ما كان ذلك ؟» قلت على الفور . «قطعة لحم بشري توارت» . «لحم بشري ؟» كرر برايان . بدا صوته بعيداً جداً بشكل كان من المستحيل أن تكون يده حيث شعرت بذلك الشيء مهما كان ذلك .

ستلفي نفسك ترتطم بكتل من تلك المادة» ، علق باتشيلدور عرضاً ، كما لو كانت نقط البلازما (الجبلة) الخارجية العائمة أمراً عادياً تماماً . «لا تخلط بينها وبين الأيدي البشرية» . «لم تكن يدي» قال برايان ، «لأن يدي على ركبتي ، هنا» . وصفع ركبتيه . هذه الحادثة هي نموذج للنوع الذي يجعل التثبت من P K أمراً صعباً . لا يسعني القول سوى أن أحداً منا لم يكن قادراً على الوقوع على تحليل عادي لها ، كما ولم يكن باستطاعتنا تكرار صوت الاصطفاق الذي ندّ عن الصفيحة دون التقاطها وهزها بيد بادية للعين بسهولة .

توقفنا برهة للاستراحة ، وصمم باتشيلدور على تبديل الطاولات . كانت الجديدة كوحش دائري بقطر أربعة أقدام ، وزنة ٤٦ باونداً . كان لها سطح علوي خشبي بسماكة بوصة ، وقوائم معدنية قوية كانت تميل إلى الخارج ، مما جعل إمالتها بصورة عادية أمراً عسيراً جداً . كما كان رفع حتى جانب منها يتطلب بعض الجهد ، وقد ألفيت نفسي غير قادر على رفعها عن الأرض أكثر من بوصة . «لن نتمكن من حملها على مبارحة الأرض» ، قلت .

كما كانت الطاولة الصغيرة فعلت تماماً، فقد أخذت تهتز بعد إطفاء النور ببضع دقائق وجلسنا وأيدينا على سطحها . ثم انزلقت بشكل فجائي على امتداد

السجادة وأخذت تميل إلى أعلى وأسفل بقوة كبيرة على نحو مرعب . وقد استقرت يداي برفق على حافتها دفاعاً عن النفس . لم أشأ أن ترتطم بأضلعي - وقد حصل ذلك بالفعل في وقت لاحق ، على نحو لا يخلو إطلاقاً من الألم .

«فلنسمع بعض الطقطقات» ، قال باتشيلدور ، بنفس الهدوء الذي يطلب فيه جرعة من شراب في نادٍ محلي . قرع ببراجمه على سطح الطاولة ، قائلاً «هذا أنا» حينما فعل ذلك ، بغية التسجيل الصوتي . جاء الجواب في الحال ؛ في البداية خبطة مدوية حينما قامت الطاولة بميلان سريع واحد ، ثم نقرتان كانتا أشبه بإعادة لنقرتي باتشيلدور ، وأخيراً تتابع ملحوظ لأنواع شتى من الضجة . وقد بدا أنها صادرة عن شتى أرجاء المكان - من نوع ضجة الخدش وكانت صادرة عن الطاولة ، دقات وخبطات متميزة صادرة عن الأرض ، وصوت أو صوتان لم يكن من السهل تحديد ماهيتهما من الأركان القصية للغرفة . ومن ثمّ أخذت الطاولة تهتز ثانية ، وهذه المرة بقوة شديدة أمكن معها سماع الضجة على شريط التسجيل . سألت عما إذا كان بإمكاني الجلوس على الطاولة . قال لي باتشيلدور أن هيا ، وجلست بعيداً عن الحافة ، وقدماي مرفوعتان عن الأرض . استمر الاهتزاز . «انه أشبه بالجلوس على قشاط ناقل» ، قلت رغم أن هذا لم يكن ما عنيت بالضبط . كان الأمر أشبه بتلقي تدليك اهتزازي ، وقد وجدت في ذلك لذة كبرى . ثم بدأت الطاولة تنزلق في أرجاء المكان وتميل على قائمتين وأنا لم أبارحها . قل استمتاعي بذلك . نزلت عن الطاولة وعدت إلى كرسي . كانت الطاولة لا تزال تتمايل عندما وضعت يدي عليها مرة ثانية .

«هذه سباحة في الهواء ، أليس كذلك ؟» قال باتشيلدور . «إنها مرتفعة عن الأرض ، أجل ، إنها تأخذ بالابتعاد . ألا تتفقون معي ؟» لم أكن متيقناً . ثم ، وبصوت انهيار مدوٍّ ، انقذفت الطاولة من تلقاء نفسها على جانبها . لو كانت قدمي في غير مكانها لاستحالت إلى مربى الفريز . قررت أن أبتعد عن الطريق لبرهة ، ومضيت وجلست على الأريكة ، وأنا أرفع كرسي أمامي كترس . طرأت

لبيل تشيك الفكرة نفسها ، بينما أدار برايان كرسيه بالوضع المخالف ليجلس عليها منفرج الساقين . بعد بضع لحظات ، عقب دقات وضربات شتى ، ندّت عن الطاولة قفزة عنيفة .

كان باتشيلدور متأهباً لها . كان بيل الجيب في يده فعمد إلى إضاءته لفترة وجيزة ، كانت كافية ليتبينّ أن الطاولة لم تكن في متناول يد أو قدم أحد منها . كان ذلك دليلاً واضحاً يظهر براعة طرائق باتشيلدور في التثبت من الظواهر على نحو حصيف وعلى غير توقع . كانت المرة الأولى التي استعمل فيها مصباح جيبه ذلك المساء ، وقد جاء ذلك تقريباً في الوقت الذي صدمت فيه الطاولة الأرض ، أيظهر بيل ، برايان وأنا وراء كراسينا ، وباتشيلدور نفسه ممسكاً بمصباح جيبه . إذاً من رفع الطاولة ؟

استقرت الأمور بعد هذه الحادثة ، وعدت إلى كرسي واتكأت على الطاولة لأصغي لما بدا أنه صوت طرق خفيف صادر عنها . ثم عرض أمامي مثال واضح على إحدى الظواهر القياسية من جعبة ظواهر الـ P K ، واحدة لم أخبرها مطلقاً رغم أني كنت قرأت وسمعت روايات لا حصر لها عنها .

«أوه !» هتفت : «نسيم بارد . شكراً لكم !» ليس هناك من مجال للخلط بينه وبين أي نوع من هبة ريح عادية . إنما نسيم لبس بالتعبير المناسب لذلك . كانت أشبه بقطعة هواء متجمدة هبت بحذاء وجهي ولفحته ، ببطء تام . لاحقاً ، شعرت بها ثانية ، هذه المرة على ظاهر يدي .

كان البند التالي في حفل المساء الترفيهي مثالاً آخر لحركة متولدة عن الطبيعي إلى ما ليس بالطبيعي تماماً . حينما انزلقت الطاولة مبتعدة عني ، فتحت ذراعي ، قبضت على قائمة من قوائمها وجذبتها . كنت أتوقع ممانعة ، لكن الطاولة انزلقت نحوي كما لو كان لها عجلات - وتابعت تحركها بعد أن أبعدت يدي ، وهي تنحرف إلى جانبها كما لو كانت تحاول أن تتفادى الارتطام بي .

لم يتوقف الدق والصرير ، وقد طمس ذلك صوت الآخرين المرتفع ، لذا أملت بجسمي إلى الأمام ووضعت أذني على الطاولة . عقب ذلك سمعت أغرب تتالٍ للأصوات وكانت الآن مكبّرة إلى حد بعيد . وقد بدت هادفة كما لو أن أحداً كان يفرم الجزر أو يقوم ببعض أعمال النجارة . كان أشبه باستراق السمع على عالم آخر . حسب كل ما أعلم ، فقد كنت أفعل .

لقد أمكنني أن أفهم السبب في أن أسلافنا الفيكتوريين قد قضوا أن هذا الشيء هو من عمل الأرواح. من المؤكد، كان الانطباع ، أن عقلاً مدبراً يعمل، وهذا العقل لا تحكمه عقولنا الواعية . كان هذا الانطباع ملازماً لي في حالات الأشباح المصوتة وقد حدا ذلك بي إلى الاعتقاد أن الـ P K كانت تعمل كوحدة مستقلة كائنة بذاتها . إن مسألة نوعية العلاقة بين هذه الكيانات وأجزاء الشخصيات المنفصمة أو ما يدعى «الاهتمام بالجوانب الخارجية للوعي المشارك» هو موضع نقاش كبير ، لكنني لن أتعرض لمناقشته ها هنا . شعرت أن باتشيلدور كان محقاً في تركيزه على مراقبة مسلك الـ P K في العالم الواقعي ، على أن يبحث عن الأسباب المحتملة في مجال ما آخر . وفاقاً لتعليله المنطقي ، لو افترضنا وجود الأرواح ، لكنا أعطينا (بضم الهمزة) الدليل الذي يعزز افتراضنا . فضل ألا يفترض أي شيء واكتفى برؤية ما يستجد طبيعياً .

ما استجد تالياً كان سلسلة حوادث ما كنت لأصدق إمكان حدوثها لو لم تسجل بوضوح على شريط . لم أكن لأنسى ذلك ، لكنه بدا لا واقعياً إذ ذاك بشكل لست متيقناً اليوم أني لم أكن أحلم . ومع ذلك ، فلم أكن أحلم بالتأكيد . هذا ما حدث :

«لم نعمل على تعليق هذه الطاولة في الهواء بعد ، أليس كذلك ؟» سألت . لم يبد على الآخرين الاعتقاد بإمكانية حصول ذلك ، إلا أن الطاولة استجابت لتحديّ في الحال ، وبدأت تنزلق في أرجاء المكان كما لو كانت تشدد عضلاتها استعداداً للقفزة الكبيرة . طلب باتشيلدور إلينا جميعاً أن نشبك الأيدي ، وكذا

فعلنا ، ولم تتوقف الطاولة عن الانزلاق دائرياً تحتها (الأيدي) ، وهذا الأثر مثير للاهتمام بحد ذاته . «أقلعي ، أيتها الطاولة ،» أمر باتشيلدور ، ببعض حماس . «لا بد أنك تمزح !» قال بيل .

«أود أن أراها معلقة في الهواء» ، أصررت . شعرت أن الوقت مناسب لغذ الخطى وبناء ديناميكية من الترقب الجماعي .

شرع أعلى الطاولة يهتز بصوت عال بمعدل يقارب عشر ضربات في الثانية، وأيدينا لا تزال تلامسه . ثم انخفض المعدل ، لكن الضربات تعالت أكثر فأكثر حتى أخذت الطاولة بالتأرجح إلى الأعلى والأسفل على قوائمها بسرعة كانت مؤثرة بالنسبة لشيء من ذاك الحجم . لم يكن هناك مجال لعزو ذلك للفاعلية العضلية اللا واعية ، قضيت . كان هذا هو الشيء الحقيقي ، وكان يتنامى بالتدريج ليكون الذروة ، كالحركة الأخيرة في سيمفونية .

«الآن هيا ، أعلى ، مرة واحدة» قلت بثبات . «أجل سباحة في الهواء لأجل غاي بليغير[1] ، إذا أمرتِ» ، أضاف باتشيلدور ، الآن أكثر حماساً من ذي قبل . ازداد الارتجاج والميلان .

«هيا» قلت . «عالياً في الهواء» .

«عالياً ، عالياً ، عالياً !» أرجع باتشيلدور كلامي . لقد كان أمراً وليس طلباً .

بدأ أربعتنا بالهتاف والصياح كمشجعي كرة القدم الذين ينفرد بطلهم بالكرة أمام مرمى مفتوح . تعالت ضربات قوائم الطاولة على الأرض كذلك . ثم استكانت فجأة في الوقت الذي شعرنا فيه بموجة ضغط مفاجئة تحت أيدينا هدف !

---

(١) غاي بليمير . مؤلف الكتاب : (المترجم)

كانت تعلو على الأقل قدماً واحداً عن الأرض ، ومكثت هناك لحوالي خمس ثوان قبل أن تنكفىء وتهوي محدثة دوياً هائلاً . «شكراً لك» ، قلت . «عمل حسن» .

كان رد فعل الآخرين ، بمن فيهم باتشيلدور ، شعوراً بالدهشة . كانت المرة الأولى ، قال ، التي تبارح فيها هذه الطاولة الأرض كلية . سررت لأن تجربتي العفوية في توليد ديناميكا المجموعة كانت فعالة ، إنما كنت محبطاً لعدم توفر دليل أفضل من التسجيل الصوتي . أبإمكاني اقناع غيري أن طاولة زنة ٤٦ باونداً قد طارت في الهواء ؟ كيف لي أن أثبت أن اثنين من الآخرين لم يرفعاها في الظلام بعد تبديل للأيدي معد مسبقاً ؟

بدا أن هناك جواباً وحيداً فقط . حتى بعد سباحتها المؤثرة في الهواء ، كان واضحاً أن الطاولة لم تفرغ من عملها تلك الليلة . فقد واصلت اهتزازها وتمايلها كطلب ينتظر أخذه في نزهة . قضيت أنه كانت هناك طرقة واحدة فقط يمكننا معها حملها على فعل شيء ما لم يكن بالإمكان تصور فعله بالوسائل العادية . سنجلس جميعاً عليها ، ظهراً لظهر . «أوه لا ، لم نجرب ذلك» ، قال باتشيلدور . «تلك تجربة تقليدية» . كنا نعلم كلانا أن غاسبارين وواحداً أو اثنين من المحققين الآخرين قد فعلوا شيئاً مماثلاً في الأيام الأولى ، لكننا لم نعلم بوجود تجربة كهذه في هذا القرن .

صعدت أنا أولاً وجلست في الخلف، وكانت ركبتاي فوق الحافة تماماً وقدماي تبتعدان بشكل ملحوظ عن الأرض . تلقيت في الحال تدليكاً اهتزازياً خارقاً آخر لفترة وجيزة ، ومن ثمَّ ندّ عن الطاولة ميلان حاد كما لو كانت تحاول الانعطاف بشكل دائري .

«أوه يا إلهي !» هتف باتشيلدور . «فلنضفك يا بيل» .

صعد بيل تشيك خلفي ، وجلسنا وظهرانا يتلامسان . في الحال كان هناك انزلاق آخر تبعه ميلان حاد. قال بيل إنه سينزل ثانية ، وقبل أن يتسنّى لي سؤاله

عن السبب ، سمعت سلسلة دقات تحتي بالضبط وشرعت الطاولة في القيام بمزيد من انعطافاتها الدائرية ، وأنا لا أزال منغرساً بثبات في منتصفها .

«تأهبوا للصعود من جديد» ، قال باتشيلدور : «ربما استطعنا تنفيد نوع من الصعود وهي تتحرك» .

«أوه ، فهمت ، قال بيل : «كالجري وراء باص ، تقصد» ؟ كان هذامثالاً نموذجياً على التسلية المحايدة التي أظهرها نحو كامل المجريات ، بالمقارنة مع فضول برايان وحماسه ، وقد ساعد كلاهما في المحافظة على جو الاسترخاء الجذل الذي أصرّ باتشيلدور أنه كان مثالياً لإحداث الـ P K . بالنسبة لي كانت مفارقة سررت بها بالمقارنة مع الجديّة الشديدة في جلسة تحضير أرواح كنت حضرتها منذ زمن غير بعيد ، كانت فيها الظاهرة الوحيدة تحرك بوق مضيء ، كان تحرك ، كما كان الوعد ، مباشرة بعد أن أنبأتني ضجة صرير أن الوسيطة «المنتشية» قد نهضت والتقطت الشيء . (كذلك وطأت الوسيطة على قدمي) .

«ها هي تنطلق !» صحت . كانت الطاولة قد تمايلت خلفي ، كما لو كانت تحاول قلبي عن ظهرها . وقت أن فعلت ذلك شعرت بظهر بيل يضغط على ظهري . لقد أمسك بالباص وصعد دون علم مني . بحوالي هذا الوقت ـ وكان الرابعة صباحاً تقريباً ـ بدأ الفلق ينبلج ، وقال باتشيلدور إنه كان يرى صورة بيل الظليلة وهو يرتفع في الهواء ، وقد تحددت خطوطها الخارجية مقابل النافذة المواجهة له .

وجدت الطاولة طريقها إلى الأرض ثانية ، وكان هناك انزلاق طويل آخر . «إنها تدور» ، قلت : «إني أنفتل ، باتجاه عقارب الساعة . سأمر بجانب برايان عما قريب . إنها تهتز وتتمايل . هيا ، فلندرْ ! أجل ، إنها تدور ثانية .

ثم جهد باتشيلدور في تسلقها واعتلى ظهرها ، لكن حتى إضافة جسده زنة ٢٢١ باونداً لم يوقف الانزلاق والتمايل . «اصعد إليها ، أسرع !» نادى برايان ، آخر المسافرين ـ أو هكذا خيل إليه ـ ممن لحق بالباص .

لكن برايان كان قد لحق به من قبل . وكنت أستشعر بوضوح ظهراً وراء ظهري - ظهر بيل - وظهرين آخرين خلف مرفقي الاثنين . حسناً ، قلت لنفسي ، إذا أمكن للباص مجرد الحركة الآن وأربعتنا على متنه ، يكون هذا كل ما أحتاجه من دليل هذه الليلة .

لقد تحركت . لقد تحركت بكل تأكيد . لم تبارح الأرض ، كما كنت امل ، لكنها تمايلت وانزلقت كما سابقاً في سلسلة من حركات مبتسرة لكنها قوية لم تنته إلا عندما صدمت مركبة المسافرين المدارة بقوة الـ P K والعصية على التصديق بكرسيّ أنا ، دافعة إياها باتجاه الأريكة ، التي كان ظهرها باتجاه الحائط . قبل أن تستكين ، أفلحتُ في ضرب قدميّ معاً ودعوة الآخرين إلى فعل ذات الشيء ، ثم زلقتُ جسمي للأمام حتى لامست قدماي الأرض وحاولت أن أحمل الطاولة على التحرك بصورة طبيعية عن طريق القبض على الحافة بكلتا يدي وحشر قدمي في الأرض . لا ضير في قليل من التحريض الصنعي عند هذه المرحلة ، كما ظننت . لن تتحرك الطاولة بوصة واحدة .

«لن يصدقوا ذلك في البيت قط» ، قلت «ولم يفعلوا» . «حسنا» .

قال باتشيلدور : «لقد برهنا على هذه بشكل جيد» . لقد فعلنا حقاً . وقد خلصنا إلى أن أوزاننا مجتمعة ، إضافة إلى وزن الطاولة كانت تقارب الـ /٧٦٠/ باونداً . هذا يعادل بصورة تقريبية زنة سبع عشرة حقيبة سفر معبأة إلى حد وزن الـ /٢٠/ كغ المسموح به .

لا يمكن لأية قوة تحرك وزناً بهذا المقدار أن تعتبر تافهة ، وربما كان حسناً كذلك أن شارفت الجلسة على الانتهاء مباشرة بعد رحلتنا على متن الطاولة . مع كل ما توفر لدي من معرفة ، قدرت أنه إذا كان باستطاعة الـ P K تحريك أكثر من ثلث طن ، فإن باستطاعتها هدم المنزل .

وإذ تقف وجها لوجه مع المستحيل تجد نفسك أمام متشكلة : هل تقبل دليل الحواس أم ترفضه ؟ المنحى الطبيعي هو أن ترفضه إذا لم تستطع تعليله ، و «تعليل» في العلم ـ تعني أن تقدم وصفاً كاملاً لمجمل عملية السبب والنتيجة التي تمخضت عما تقول إنك لاحظت وتقديم المعلومات الكافية التي تمكن أي شخص آخر من إعادة إجراء ماتوصلت إليه .

كتب تشارلز ريتشيت يوماً مقالة في «شروط اليقين» وصف فيها خبراته الخاصة في مشاهدة العديد من الظواهر التي عدها حقيقية في حينه ، من بينها عدة حوادث تعليق للطاولة في الهواء في منزله ، حتى ألفى نفسه لاحقاً وقد فقد الثقة في قواه في الملاحظة . «رأيت» ، قال ، «لكن هل كان حقاً ما رأيت» ؟

وصف هيروارد كارينغتون ، الذي قضى وقتاً مع يوزابيا بالأدينو يفوق ما قضاه أي محقق آخر ، كيف أنه وزملاءه «يرتدون ثانية إلى الشك» في الصباح الذي يعقب الجلسة معها، حتى عند اقتناعهم في حينه تماماً أن الـ PK كانت تحدث . «بدت الحوادث وكأنها تنداح عن ذاكرتنا» ، كتب في تقرير عن سلسلة جلسات تم فيها معاينة سبع وأربعين حالة تعليق لطاولات في الهواء وأكثر من أربعمئة ظاهرة مختلفة أخرى ، كان بعضها في ظل شروط كانت في رأيهم مثالية .

شاهدت شيئاً طائراً غير محدد في كانون الأول عام ١٩٧٤ . وقد مرّ فوق بيتي وهو يشق طريقه في سماء ريو دي جونيرو مرعباً عدداً لا بأس به من جيراني وكذا أنا . وقد تحدد خلال دقائق على أنه قمر صناعي سوفييتي ، انفلت من مداره وعاد إلى الأرض قبل أوانه . وكانت الأقمار الصناعية في مداراتها بدعة جديدة في تلك الأيام ، ويمكن التماس العذر لنا في خلطنا بين شيء وآخر .

لكن لا يمكن لك أن تخلط بين طاولة صلبة تجلس عليها وبين أي شيء آخر ، ولا سيما إذا كان ثلاثة شهود يجلسون عليها كذلك ويصفون ما يحدث ، مع تسجيل كل ما يحدث على شريط . هذه حادثة لم تندح من ذاكرتي ، وعلى خلاف مواجهتي مع الشيء السوفييتي الطائر الذي تحدد ، فهي تنتظر التعليل .

في تموز ١٩٨٣ أمكنني حضور جلسة ثانية مع مجموعة باتشيلدور . وقد كانت هذ المرة أقل درامية من الأولى ، لكن تشابهها في الإقناع . في الفترة الفاصلة بين الجلستين ، حضرت المؤتمر الدولي الخامس في البحوث السايكوترونية ، وهي مناسبة تعقد كل سنتين منذ عام ١٩٧٣ ، عندما بدأت رابطة بحوث من الشرق والغرب أعمالها مشاركة على يد علماء النفس د. جدينيك ريجيداك من تشيكوسلوفاكيا ود. ستانلي كريبنرمن الولايات المتحدة . وقد اختيرت الكلمة «سايكوترونيات» على أنها موائمة لكافة الايديولوجيات وهي تعني علم وتكنولوجيا العقل في حال الفعل ، على منوال الالكترونيات ـ وهي دراسة وتطبيق الالكترونات في حال الفعل .

كان المقر الجديد والأنيق لكونغرس اتحادات العمال في براتسلافا ، تشيكوسلوفاكيا ، مكاناً غير عادي لمحاضرة في تمايل الطاولات ، لكن القيت واحدة هناك وكان المتكلم أنا ، وذكرى الخبرات التي وصفت أعلاه ما تزال طازجة لدي . قدمت وصفاً موجزاً للدراسة الأولى التي ذكرت في الفصل السابق ، وخرجت عن خطي لأشدد أني كنت معنياً بالظواهر المرتبطة بالحركة الروحانية الأولى وليس بتعليلاتها . ختمت بهذه الكلمات :

تحريك الطاولات ، كما ليّ الملاعق ، ليس بالفعالية الاجتماعية النافعة . ومع ذلك فهي طريقة فعالة في تدريب الناس العاديين على توليد الآثار السايكو ترونية ، مثل تدرب طالب الموسيقى على استخدام السلالم . يمكننا اليوم على نحو معقول الاختلاف مع معتقدات المسمريين ، والروحانيين ومحركي الطاولات الأوائل (بعض منهم ، على أية حال) ، لكن يجب ألا نرفض طرائقهم ، لأن هناك من الأدلة ما يدل على نجاحها . ستكون دراسة دقيقة لبحوث القرن التاسع عشر الرسمية واللا رسمية ذات قيمة كبرى لعلم هذا القرن والقرن التالي كليهما .

بعد كلمتي ، حاصرني مندوبو ما لا يقل عن أربعة بلدان أوربية شرقية علهم يعرفون المزيد . كمعظم الناس في المؤتمر ، كانوا مهندسين مؤهلين مهنياً ، أطباء وعلماء نفس وكان واحد منهم قد أفلح في زيارة باتشيلدور وحضور جلسة بنفسه. في هذه المرة، أكد باتشيلدور لاحقاً، اندفعت الطاولة في الهواء وفوق رؤوس الجالسين بالضبط ، لتحط على آلة التسجيل المرئي محدثة فيها انبعاجاً كبيراً .

في وقت لاحق من ذلك المساء أقنع زملائي مدير فندقنا أن يجد لنا غرفة صغيرة «لاجتماع علمي» ، شعرت من جراء ذلك بالحرج عندما تقرر أن أحتل الكرسي وأريهم كيفية حمل الطاولة على التحرك . أوضحت أن هذا لم يكن ممكناً لعدة أسباب : كانت الطاولة المتوفرة ثقيلة الوزن بإفراط ، وكانت الغرفة مفرطة الإضاءة وكان هناك الكثيرون منا . ربما كان علي أن أضيف اهتمام مسبق بشروط تحكم فورية ومتشددة . كذلك ، قلت ، لن نبدأ تحريك الطاولة ما لم نبنِ علاقة ألفة اجتماعية ، الأمر الذي قد يستغرق جلسات عدة .

على أية حال ، أريتهم كيفية ترتيب أمر ذلك ، وأبعدنا البلاطة الرخامية الثقيلة وجلسنا حول إطار الطاولة وأيدينا عليها .

«الجزء المادي سهل» ، قلت . «كل ما أنت بحاجة إليه هو طاولة ، واثنان من الناس كحد أدنى . الجزء العقلي هو الأكثر تعقيداً . يجب أن تتحلى بالإيمان الكلي في امكانية توليد الـ P k ، وغياب كامل لمقاومة فكرة قيامك بذلك بنفسك . عليك أن ترغب في فعل ذلك ، وأن تتوقع أن باستطاعتك فعل ذلك . لا ينبغي أن يساورك قلق حول سبب رغبتك في فعل ذلك - أي شيء يوجد في الطبيعة يستأهل الدراسة لا لسبب إلا أنه موجود. وPK موجودة بالفعل، كما يعلم معظمكم جيداً . لكن لا تسلموا بما أقول ، ولا تصغوا للمشككين . ابدؤوا بمجموعات منكم وتأكدوا بأنفسكم» .

بينما كنت أتحدث ، فتح موظف من موظفي الفندق الباب وحدّق والإرتباك بادٍ عليه في ثمانية من «العلماء» وهم يحملقون في شبه ظلمة حول طاولة دون سطح . تصورت مسبقاً وصول الـ(ك.ج.ب. التشيك) واحتجازنا بسبب ما يعرف هناك بـ «المثالية» ، لكن سار كل شيء على ما يرام ، وعلمت لاحقاً أن مجموعات في ثلاث من دول الكتلة الشرقية ناشطة من قبل ، وأن إحداها قد توصلت إلى نتائج مشجعة .

في جلسة تمايل الطاولات الثانية ، كان هناك ثلاثة منا : باتشيلدور ، برايان كوزواي وأنا ، ولم يبدُ أن تناقص عدد الجالسين قد أثر في الظواهر ، التي تكرر كثير منها منذ أول جلوسي . كان هناك الهواء البارد عينه ، أو بقعة الهواء المتجمد العائمة .

اهتزت الطاولة كما سابقاً ، ومرة ثانية أمكنني اختبار أثر الساحة المغناطيسية حينما رفعت الطاولة وحاولت إعادتها إلى مكانها الأصلي . وإذ لم يكن فكي ممتلئاً بالمادة المخدرة للأسنان هذه المرة ، فقد كنت أكثر تنبهاً من ذي قبل ، وتمكنت من إقناع نفسي ببعض الحركات السريعة للقدم والذراع أن أحداً من الآخرين لم يكن على مقربة من الطاولة التي كانت تتقافز في أرجاء الغرفة «على الهواء» تحت يديّ .

كان هناك ألعوبتان جديدتان عرضتهما الطاولة عليّ . إحداهما ، وقد أسميتها رقصة الحرب المكسيكية ، انطوت على التمايل إلى أعلى على قائمتين ثم انقلاب سريع إلى الآخرين بينما بقي مركز أعلى الطاولة في الوضع نفسه تقريباً ، وقد تكرر هذا بسرعة فائقة وسمعت ضجة شابهت تدحرج طبل على الأرض . عمل بهلواني جديد آخر ذكرني بدلفين يسير على ذنبه ، كنت رأيته في برايتون . قامت الطاولة على قائمة واحدة ووثبت في أرجاء الغرفة بنفس الزاوية ، ثم وازنت نفسها على قائمتين وسطحها عند الدرجة ٤٥ تقريباً وبدأت «تمشي» جيئة وذهاباً تحت أيدينا .

ما هو حتى أكثر إمتاعاً من ذلك ، مع هذا ، كان الضجات . كما سابقاً ، كانت هناك ضربات ودقات منتظمة من الطاولة إضافة إلى تلك الناجمة عن ضرب قوائمها بالأرض مرة ثانية ، وأذني على سطحها ، تولد لدي شعور أنني كنت أسترق السمع على الجيران . (لم يكن لدى باتشيلدور بالمناسبة ، أي جيران في مرمى السمع) . وقد بدت هذه الضجات الأكثر هدوءاً هادفة كما في السابق ، ولم يكن ممكناً حسبانها خطأ على أنها تشققات في البناء بسبب تبدلات درجة الحرارة أو طقطقة في أنابيب المياه .

ثم وجدنا أنه إذا ما ضربنا ضربات إيقاعية على الطاولة بأنفسنا ، كانت تترجع إلينا بعد عدة ثوان بشكل مماثل تقريبياً ، رغم أنها على درجة أكبر من البطء . وقد كان الغريب في الأمر أنه ، على الرغم من أن الطاولة كانت تهتز بشكل مسموع وملموس عندما كان يبدو عليها كذلك ، فإن هذه النقرات لم تسبب أي اهتزاز على الاطلاق ، على خلاف الضجات التي أحدثناها بأنفسنا . وقد كان بعضها خافتاً بشكل لم يكن بالإمكان سماعه إلا عند وضع الأذن على الطاولة .

تذكرت المرة التي قرعت فيها على الباب الأمامي لمنزل إينفيلد في تجربة الأشباح المصوتة عندما أرجع الباب في الحال صوت قرعي ، رغم أنه لو كان أحد خلف الباب لأمكن رؤيته من خلال الزجاج ـ وقد أكدت لي المرأة الوحيدة في البيت إذ ذاك أنها كانت في المطبخ عندما قرعت .

مثال آخر على التكرار بواسطة الـ P K وهو حتى أكثر أهمية من ذلك قدم لي شخصاً على يد د. ألفريد كرانتز ، طبيب نفساني من باو ، فرنسا ، وهو محقق متحمس لكنه حذر في ظواهر الـ P k العفوية من شتى الأنواع . عند زيارة منزل مبتلى بالأشباح المصوّتة في ميلون ، وسماعه طرقات صادرة عن الحائط ، سأل الطارق اللا مرئي : (هل تسمعني ؟)[1] . تلت فترة صمت قصيرة ، ثم أرجعت

(١) باللغة الفرنسية (المترجم)

كلماته ـ من الحائط . «لقد كان صوتي ونبرتي ، إنما في مقام أخفض» ، قال لي «التفت إلى زميلي وسألت عما إذا كان قد تكلم . «لا» ، قال لي ، «لكنني سمعت ذلك أيضاً» . وكان شعر رأسه منتصباً .

من المغري جداً في مناسبات كهذه الافتراض أنك في حضرة الأرواح (ولأسارع القول إن د. كرانتز لم يفعل ذلك قط) . إن انطباع وجود عقل مستقل فاعل هو انطباع قوي جداً، كما قلت مسبقاً. وقد حد ابي هذا إلى الشعور بالتبرير إزاء اعتباري قوى الـ PK كيانات مستقلة . يسمي بعضهم هذه بالأرواح ، ويفترضون أن ما يحركها هو عقل أحد ما توفي .

مهما يكن ، هنالك دلائل ممتازة تناقض فرضية الأرواح التقليدية . استحضرت مجموعة فيليب في تورنتو بالتأكيد روحاً ، لكنه كان من ابتداعهم ، ومعه صورته وسيرة حياته المفصلة بالكامل . كان لفيليب حياته الخاصة ، لكنها كانت خيالية بالكامل . إن حقيقة أن ذلك لم يؤثر في واقعيته في شيء من بعض النواحي حدا بالبعض إلى الافتراض أن الواقع كما ندركه يمكن أن يكون إلى حد ما نتيجة تخيلاتنا .

كما قلت مسبقاً ، تكوّن لدي انطباع ، وأنا أصغي إلى أصوات الصرير والفرقعة الهادفة والطقطقة بشكل عام الصادرة عن طاولتنا ، أنني كنت أسترق السمع على أحدهم وهو يقوم بعمله المنزلي في بعد آخر . لكن النقطة الهامة هي أنني لم أشعر أن هذا الأحد الروحي كان يتنكب مسؤولية ما كان قيد ملاحظتنا ـ شعرت بالتأكيد أننا كنا ، أنفسنا . بعض حركات الطاولة كانت ، دون ريب ، استجابة لرغباتنا الواعية . في جلستي الأولى حمل أربعتنا الطاولة الكبيرة على السباحة في الهواء عن طريق الأمر المباشر ، وفي مناسبات عدة في كلا الجلستين أرانا باتشيلدور أن بالإمكان الحصول على استجابة فورية لأمر مباشر . ومع ذلك ، فهو ينصح المبتدئين ألا يجربوا هذه الطريقة حتى يتوصلوا إلى نتائج بدونها ، إذ من المحتمل أنها تثبط الفعل أكثر مما تعمل على زيادته .

تجنح الـ P K إلى التصرف كما لو كان يوجهها مستوى عقل جمعي بعيد جداً عن متناول وعي الفرد . ما نزال بعيدين عن فهم كافة قواعد الترجمة الفورية للفكرة إلى عمل مادي لست أرى أي أمل حالياً في نزع الصفة المادية عن قواعد الصواريخ بواسطة P K التحكم من بعد ، أو أن نشابك حواسب العقول عن طريق المخربين بالاستبصار . مثل هذه السيناريوهات لا تزال في مرحلة الخيال العلمي ، رغم أنها ليست مستحيلة نظرياً كما قد تبدو . مهما يكن ، أنا معني في هذا الكتاب فقط بما هو حادث مسبقاً .

عام ١٩٤٣ ، لخص ج.ب. راين عشر سنين من العمل في مخبره في جامعة ديوك في التأثير على زهر النرد بواسطة الـ P K ، وتوصل إلى بعض الاستنتاجات الجريئة المبنية على سلسلة طويلة من نتائج ايجابية احصائياً . كتب :

على المرء إما أن يرفض قبول تأثير الـ P K ، أو يخضع لثورة تامة في فلسفته العقلية . إذ أن مبدأ الـ P K يستلزم أن يكون العقل قوة حقيقية ، قادرة على تخطي عضويتها الجسدية على نحو فعال . وإضافة إلى الإدراك ما فوق الحسي [أو التخاطر والاستبصار] فهو يشير إلى مرتبة من السببية المادية التي لمن الواضح أنها حسب المفاهيم الحالية ليست بالمادية ، ومع ذلك فهي قادرة ، كما تبين المعلومات المستقاة من التجارب ، على التأثير فعلاً في العالم المادي الفيزيائي بطريقة ذكية هادفة .

ليس العقل مجرد تجريد، شده هو. فله «طاقة حقيقية، تقوم بعمل حقيقي ، وتؤثر بصورة فعلية في الأجسام المتحركه» . إنه في الواقع «ما يعتقد معظم الناس بالضبط أنه ما هو عليه» وله دائماً : مكوّن غير مادي للكائنات البشرية يمارس «تأثيراً عرضياً لا يمكن إلا أن يكون ناشطاً» . وقد أظهرت كافة الأدلة ، من المخبر والحياة الواقعية كليهما ، أن الـ P k مثلها مثل الإدراك ما فوق الحسي ، لا تحدها مفاهيمنا عن الزمان أو المكان . علاوة على ذلك ، يجب أن يكون الاثنان على ارتباط . إن الـ P K قوة ذكية تعلم ما تفعل ، و«لا بد من وجود طريقة عمل ف

الإدراك ما فوق حسية لتوجيه القوى التي تقوم بالعمل» .

لم يخش راين مواجهة ما تنطوي عليه اكتشافاته بالنسبة للطب ، وعلم النفس والتطور . وإذ كان يكتب في وقت لم يكثر فيه النقاش الذي يتناول الطب السايكو سوماتي (الجسدي نفسي) ، قال : «إذا كان الشخص يؤثر في سقوط زهر النرد عن طريق تفكيره ، يمكن بالتأكيد أن نتوقع أنه يؤثر في العمليات الفيزيولوجية لأنسجته ، مثل حركة الخلايا الحية والعضويات الغريبة ، عمليات الشفاء والنمو ، وعمل المرض والترميم بشكل عام» .

يدعم هذه الدعوى بشكل كلي القليل المتوفر من البحوث عن تأثيرات العقل الممكنة على العمليات الفيزيولوجية ، التي يضرب فيها كبح ستيفن بلاك بالتنويم المغناطيسي لـ «تفاعل مانتو» لإصابة التدرن الرئوي مثالاً حداً .

أما بالنسبة لعلم النفس ، فقد شعر راين آن ثورة كوبرنيكية جديدة في العقل كانت تأخذ مجراها . كان كوبر نيكوس قد بيّن أن مركز الكون ليس الأرض ، لكن (بقدر ما يتعلق الأمر بنا) الشمس كانت الأرض مجرد كوكب يخضع لقوانين تأتي من خارج حدودها . وقد نقلت فرضية الإدراك ما فوق الحسي / الحركة النفسانية (PK/ESP) مركز «الكون الشخصي» من المخ والجهاز العصبي ورسخته في العقل . قد تكون «الطاقة العصبية» مايوجه عضلاتنا ، لكن الأعصاب هي كذلك موجهة ـ بالفكر . ومذ أنها تحتاج إلى طاقة كي توجه طاقة ، يمكننا الافتراض أنه لا بد من وجود «طاقة تفكيرية» . وقد أثار د. هوارد ميللر ، كما ورد ذكره في الفصل ٤ ، النقطة نفسها على أساس من خبرته السريرية .

عند الانتقال إلى التطور ، أشار راين إلى أنه إذا كان «النظام العقلي للعضوية قادراً إلى حد ما على السيطرة على العالم المادي حولها ، لماذا لا يفترض أن عملياتها الجسدية هي ضمن مجال تأثيره ؟» . دلّ والاس بوضوح بتخمينه أن كل قوة يمكن أن تكون «قوة إرادة» ، إلى أن ما ندعوه الآن عامل P K قد يكون فاعلاً في مجال التطور .

لقبول دليل P K (الحركة النفسانية) و ESP (الإدراك ما فوق الحسي) ، لا بد أن نخضع في الواقع لثورة تامة في فلسفاتنا العقلية . ويفضل الكثيرون منا ترك فلسفاتنا العقلية دون إزعاج ، مهما تكن هذه غير مكتملة وغير قادرة على تفسير بعض الوقائع الحياتية الراسخة . إن الجهد المطلوب لنقل مركز الكون الشخصي هو فوق طاقة البعض ، الذين يتجاهلون دليل Psi كلية أو يهاجمونه بحدة تقارب غالباً الهستيريا ، بشكل يشي بإدراك لا واع ومقموع بشدة على أنه صحيح ، ويذعر صرف لفكرة أن عليهم مواجهة مضامينه . هذا هو ما يكمن وراء الغضب والمذمة الصادرين عن الكتاب والمحررين العلميين ، وعن أفراد مجموعات الأمن «الإنسانية» مثل لجنة البحث العلمي في دعاوى الخوارق . .

في هذا الفصل وفي الفصل الذي سبقه ، أتيت على ذكر عينة صغيرة من الدلائل أقنعتني بوجود الـ P K ، وكما هو الحال مع التخاطر عملت على توفير وسيلة تنهي المجادلات حول ما إذا كانت موجودة عن طريق توضيح كيف أن القراء يمكن ان يتأكدوا بأنفسهم ما إذا كانت موجودة أم لا . من الواضح أن ليس بإمكاني أن أكفل النتائج . ليس هناك مؤلف كتاب ، لنقل ، في العزف على الغيتار ، يمكن أن يضمن أن أي شخص يقرأه سيكون كجوليان بريم . بإمكانه أن يبين لك ما ينبغي عليك فعله إذا ما رغبت في محاولة تقليد أساتذة هذا الفن ، ضمن حدود موهبتك وقدرتك على الخيال ، ويمكنه أن ينبئك بما فعل الأساتذة أنفسهم توصلاً إلى ما هم عليه من جودة . لا يسعه أن يضمن أنه سيكون بمقدورك أن تعزف الجيتار على الإطلاق .

تعلم الـ psi يختلف عن تعلم عزف الجيتار في ناحية مهمة واحدة . فهو لا ينطوي على تعلم بل على التجرد من التعلم . عليك أن تحرر نفسك من المبدأ الذي يتكرر باستمرار الذي يقول بعدم إمكانية فعل ذلك لأنه غير موجود .

مثل هذا الشيء موجود ، مع ذلك . يمكن فعله ، ويمكن أن يكون هاماً جداً . هناك درس ينبغي تعلمه من الغرائب المضحكة للشبح المصوّت . السلوك

ما فوق الواقعي لتمايل الطاولات والبحوث المملّة لكن الضرورة لآل راين وخلفائهم الكثيرين من محترفي الباراسيكولوجيا ، إذ أن أثر الـ P K موجود في نواح أخرى غير هذه . إلى أي مدى هو فاعل في خلفية حيواتنا ، ليس بوسعنا سوى التكهن ، وتكهنات كينيث باتشيلدور الذي درس العقل على الأشياء الكبيرة لمدة عشرين سنة تستحق منّا الاستماع .

«أفضل أن أنظر إلى P K» ، أخبرني «على أنها قادرة على إحداث أي أثر معروف لدى الفيزياء . ليس من الضروري أن يكون ذلك حركة ـ يمكن أن يكون تبدلاً كيماوياً ، إحداثاً لضوء ، أثراً كهربياً ، رائحة . أو ناراً . لست أعتقد أنها قوة جديدة بقدر ما هي طريقة تكمن تحت كافة القوى ، وتربطها بالعقل . ما هي حدودها ؟ يبدو أنه ما إن تطلقها من عقالها حتى ترى أن قدراتها الممكنة تكاد تكون دون حدود .

بعد ما شاهدته في بيته ، كنت ميالاً إلى الموافقة على ذلك .

«لكنها محدودة» ، تابع . «بمعنى أن من الصعوبة الدخول في الحالة العقلية المناسبة لفعلها . ربما لحسن الحظ» !

تختلف الـ psi عن عزف الجيتار من ناحية أخرى : يمكن أن تحدث تلقائياً ، دون أية ممارسة ، وتعمل وفاقاً لمبادىء دقيقة نحن في بداية فهمنا لها .

«طرأت لي ذات مرة الفكرة الحمقاء» ، قال باتشيلدور «والتي مفادها أن كل فرد في العالم يشابه مجموعة جلساء عملاقة . . لماذا تتصرف الأشياء على ما يبدو بصورة موضوعية ، بشكل مستقل عما أرغب ؟ لنفس السبب الذي يحدث في مجموعة جالسين صغيرة عادية . إن الظواهر هي نتاج كامل المجموعة ، لذلك تبدو مستقلة عن رغبات أي فرد جليس . لا يمكن لأي شخص بمفرده أن يفعل الكثير حيالها ، تماماً كما لا يمكننا في الحياة العادية التأثير في قانون الجاذبية . ومع هذا ففي كلتا الحالتين يمكن أن تكون الظواهر من ابتداع العقل .

تذكرت تخمين والاس أن كل قوة قد تكون قوة إرادة .

«وإذاً» ، خلص باتشيلدور ، «كما يعتقد معظم البحاثة ، كانت الـ P K منتشرة في الزمان والمكان ، لماذا لا يستطيع أي شخص سبق أن عاش أو سيعيش إطلاقاً ، أن يكون جزءاً من مجموعة من الجالسين تبدع الواقع كما هو مدرك في حينه ؟

بمعنى ما ، يمكن أن تكون الـ P K المادة الجوهرية للكون» .

يلي الجزء الثالث بعنوان : السحر والمعجزة

الفهرس

١ ـ مدخل ٥
٢ ـ يوم سعيد ١١
٣ ـ أنا أسير عقله ٣٧
٤ ـ قوة الإرادة ٦٣
٥ ـ بعض التموجات المتدرجة ٩١
٦ ـ إدارة الطاولات ١١٩

هذا الكتاب

وصف برايان انغليز هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة بقوله : (أول دراسة شاملة من نوعها . . مثيرة بحدّ ذاتها وبمضامينها) .

وفي هذا الجزء يتحدى المؤلف التحيز السائد طبياً ضد استخدام القدرات النفسية ، ويجادل في أن إهمالها ـ وليس العوز المعرفي ـ هو ما يحول دون انتشار استخدام الطرق الشفائية الطبيعية .

كذلك يبحث المؤلف في انتقال المعلومات بغير اللفظ بين كائن حي وآخر ، وفي مقدرة العقل على التأثير في المادة ، وكيف يكون ذلك كله وجهين لفن الشفاء ، وهو ما يكمله متابعة البحث في قوة العقل وقوة الإرادة والتموجات المتدرجة والاستبصار والتخاطر عن بعد .

صدر أيضاً

الجزء الأول : التداوي بالتنويم المغناطيسي
الجزء الثالث : السحر والمعجزة



دار الحوار للنشر والتوزيع : سورية ـ اللاذقية
ص.ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩